

حدث في تلك الليلة

محمود الحرشاني



رواية

منشورات الثقافية
التونسية



حدث في تلك الليلة

رواية

الكاتب

محمود الحرشاني

الترقيم الدولي الموحد : ISBN 978-9938-72-198-0

التعريف

عنوان الكتاب : حدث في تلك الليلة

الصنف : رواية

الكاتب : محمود الحرشاني

عدد الصفحات : 120

الناشر : موقع الثقافية التونسية والمؤلف

تاريخ النشر : 31 جانفي 2022

الترقيم الدولي الموحد : ISBN 978-9938-72-198-0

المطبعة : مطبعة دنيا سيدي بوزيد

الإهداء

إلى

إلى أفراد عائلتي زوجتي وابني
وإلى روعي والديّ صالح ومهرية
وكل أقاربي أحياء وأمواتا.

الفصل الأول

في مكتب حاكم التحقيق عندما سألني حاكم التحقيق ما هي قصة الوثائق التي وجدناها محشوة في ملف في درج من أدراج مكتبك وتحدث عن علاقتك بتنظيم سري مناوئ للنظام ؟

بهت في البداية.. كان السؤال مفاجئاً بالنسبة لي.. وبعد صمت دام دقائق قلت لحاكم التحقيق : عن أي وثائق تتحدثون سيدي القاضي.. أنا لا أعرف أي شيء عن الوثائق التي تتحدثون عنها ولا صلة لي بأي تنظيم سري أو مشبوه ولا أعرف هذه التنظيمات أصلاً.

نظر إليّ حاكم التحقيق نظرة فهمت منها أنه يستبطن سؤالاً أخطر وكان جالسا وراء مكتبه.. وفجأة قام

واستوى واقفا ودون أن يمهلني لحظة واحدة سألني : أسمع
لا فائدة من الإنكار.. نحن نعرف عنك كل شيء تاريخ
ميلادك ونشأتك ودراستك في المدرسة الابتدائية ومرحلة
تعليمك الثانوي ودراستك الجامعية. لا فائدة في الإنكار.
سمعت. لا فائدة في الإنكار.

قلت له مستغربا : سيدي القاضي أنتم تعرفون عني
كل شيء. هذا ممتاز ولكن أنا لا صلة لي بأي تنظيم
مشبوه. ولا أملك أي وثائق سرية.

نظر إليّ حاكم التحقيق من جديد وعاد ليجلس على
مكتبه ثم ضغط على الجرس الذي أمامه، ولما دخل
الحاجب قال لي أظنك في حاجة إلى شاي أو قهوة ماذا
تريد ؟ طبعا سيكون معها كوب من الماء المثلج.

ودون أن يبطن الحجاب عاد إلينا بعد أقل من
خمس دقائق بصينية عليها كوبان من الماء البارد وكأسان
من الشاي الأخضر. أمر حاكم التحقيق الحجاب بأن يضع
أمامي كأسا من الشاي وكوبا من الماء ثم أضاف إن شئت
أن تدخل فلك ذلك. قلت له معذرا : - شكرا سيدي الرئيس
أنا لا أدخن ولا أشرب الشاي فقط أسمح لي بشربة ماء
فإنني أحس بشياع في ريقى. قال لي لك ذلك وهذا كأسى
أنا أيضا إن لم يكفك الماء الذي فى كوبك أو أدعو لك
بكوب ماء آخر. قلت له سيدي الرئيس أنا إنسان مثقف
أعيش مع كتنى وأقلامى وصحفى ومجلاتى هى كل عالمى
الذى أعيش فىه لىست لى أى طموحات سياسية فمن أين
جئتم لى بهذه الحكاية. لحظتها انتفض حاكم التحقيق، نحن
لا نلفق الحكايات. كيف تقول هذا الكلام؟ نحن نتابع
تحركاتك من زمان. أنت على صلة بتنظيم سرى مشبوه.

وفي مكتبك وجدنا كل الوثائق التي تدل على صلتك وعلاقتك بهذا التنظيم. سكت برهة ثم أضاف : اسمع. يا .. إذا كنت تريد أن تريحنا وتريح نفسك.. لا فائدة في إضاعة الوقت. الاعتراف أحسن. أجبنا مستغربا : سيدي الرئيس.. هل أعترف بشيء لم أفعله ؟.. بماذا تريدني أن أعترف ؟ كان الوقت قد جاوز الرابعة مساء وقد مضى على وجودي بمكتبه أكثر من أربع ساعات.

قال لي : هل تتكر أنك أحد الذين بشروا ونظروا للثورة ضد النظام ؟ هل أسرد لك عناوين كتبك هذا فضلا عن كتاباتك بأسماء مستعارة ؟ نحن لسنا غافلين يا هذا.

الفصل الثاني

خرج من مكتب حاكم التحقيق وهو في حالة إعياء، كانت بادية على كل ملامح وجهه ليجلس على أول مقعد اعترضه. ثم أخرج من جيبه علبة السجائر وهمّ بوضع سيجارة في فمه لولا أن الحاجب أعلمه بأن التدخين ممنوع في هذا المكان. أعاد علبة السجائر إلى جيبه، ووضع رأسه بين كفيه وأغمض عينيه وراح يتذكر من دبر له هذه المكيدة. كيف يقبل أن يجد نفسه متهما بالانخراط في تنظيم سري يخطط لأعمال ضد النظام ؟ كيف يمكن له أن يقبل مجرد التفكير بقبول هذه الفكرة ؟ استحضر كل لحظات حياته.. وهمّ بالعودة إلى مكتب حاكم التحقيق ليصرخ في وجهه : سيدي أنا لست مجرماً.. أنا ابن

مقاوم.. أن ابن رجل كان في طليعة الصفوف الأولى التي
لبّت نداء الواجب والتحت بالجمال لمقاومة الاستعمار..
كان نشيدهم الذي يملأ مهجتهم ويزيد في حماسهم هو
حماة الحمى.

تمهل قبل أن يدخل ثنائية إلى مكتب حاكم التحقيق
كأنه يريد أن يستجمع أفكاره المشتتة، هو يشعر أن أفكاره
مبعثرة في هذه اللحظة.. ربما قد يكون ذلك من وقع
المفاجأة التي لم يكن ينتظرها.ربما لأن آخر ما كان يخطر
بباله أن يجد نفسه متهما بالانضمام إلى جهاز سري
تدميري. همّ ثنائية بالوقوف، كانت هناك أفكار كثيرة ترد
بخاطره، كانت الأفكار تتوالد في رأسه كما تتوالد أمواج
البحر.. فكرة تدفع فكرة، كان يمتحن في سره قدرة كل فكرة
يقولها لحاكم التحقيق ليدحض بها الاتهام المسلط عليه.

توالدت في رأسه أفكار كثيرة.. أحس بدوار في رأسه
وبحاجته الأكيدة إلى سيجارة وقهوة سوداء بلا سكر. قام
من مقعده اللوحي وهمّ بالخروج. عفوا سيدي.. لا يمكنك
الخروج. استغرب كلام الشرطي ولم يأبه به في البداية ثم
استدار إليه وسأله نعم سيدي.. ماذا قلت. قلت لك لا
تستطيع الخروج من هنا بأمر من السيد قاضي التحقيق.
قال له ولكن أنا أنهيت الأمر مع السيد قاضي التحقيق. رد
عليه الحاجب لا أعرف يا سيدي ولكن أنا أنفذ الأوامر وأي
أوامر صدرت لك ؟ قالها للشرطي في لهجة حاسمة لا
يمكنكم اعتقالني.. أنا رجل شريف. لا أخون وطني. أنا ابن
مقاوم ساهم في تحرير الوطن. علا صوته وتجمهر عدد
من الذين كانوا في بهو المحكمة حوله وخرج قاضي
التحقيق من مكتبه ليجده على تلك الحالة من الهيجان
والثورة.

الفصل الثالث

صدرت صحف اليوم الموالي حاملة في صفحاتها الأولى خبر اعتقال مجموعة من الأشخاص بتهمة الانتماء إلى تنظيم سري كان يخطط لعمليات وصفت بالمشبوهة.. وأذاعت الإذاعات في نشراتها الاخبارية الخبر في مقدمة هذه النشرات.. تابع الناس في ذهول الخبر.. لأن الخبر كان صادما لم يكن أحد ينتظر أن تستفيق المدينة على خبر كهذا وأصبح الخبر حديث الناس في المقاهي. عصام المهندس الفلاحي المعروف بدمائة أخلاقه وجديته وحماسه في العمل من بين الموقوفين في هذه القضية. أغلب أبناء المدينة يعرفونه.. منذ ان تخرج من الجامعة عين في خطته كمهندس فلاحى وكل الذين يقصدونه لا يجدون منه إلا

الدعم والمساعدة وقال قائل // مستحيل. كيف يكون عصام من بين المورطين لم تظهر عليه أبدا علامات المناهضة للنظام وما الذي يجعله مناهضا وهو في وضعية مهنية مريحة.. وقال آخر هو مهندس فلاحى ماذا يريد أكثر.. وزير أو رئيس دولة. أما شهاب هذا المعلم المتقانى فى خدمته كيف يمكن أن نقبل أنه على صلة بتنظيم سري. لا يمكن القبول بهذا. أعتقد أن هناك خلط فى الأسماء وتناهى إلى الجماعة صوت من الطاولة البعيدة نسبيا. إنكم تحكمون على الظواهر يا جماعة ما أدراكم بما كان يدور فى خلد.. صحيح نحن نعرف شهاب منذ أن عين كمعلم بالمدرسة وقد درس العديد من أبنائنا ولكننا لا نعرف أسرارهِ كاملة. ورفع أحد الحاضرين صوته يا جماعة يا جماعة مالنا نحن وهؤلاء.. هؤلاء شرذمة ظالة تريد أن تدبر المكائد

للدولة وتعكّر صفو النظام العام. فعاجله أحد الحاضرين
في الطاولة المجاورة :

- اسكت أنت يا .. نحن نعرفك. لا فائدة.. نحن
نعرفك جيدا.

فاستدار إليه في حركة والشرر يتطاير من عينيه
وقد اقترب منه كثيرا :

- ماذا تريد أن تقول يا .. تكلم أنا أعرفك أيضا أيها
الشيوعي.

- شيوعي... أفضل منك أيها الصباب.

- صباب ؟ تقولها.. أنا أشرف منك أنا على الأقل
لا أتاجر بمبادئ أيها الأحمق أما أنت أيها الشيوعي
المندس.

كان كل واحد من بين الحاضرين يريد أن يدلي
بدلوه في المسألة ونسوا عبدالفتاح لم يتناول سيرته أحد.
عبدالفتاح المثقف البوهيمي الذي يعيش بين الكتب والأوراق
والأقلام، ذاك الذي قيل أنه حفظ منجد لاروس في صغره
وحفظ المعلقات السبع والفية ابن مالك وكتاب كليلة ودمنة
والبخلاء وكتب أخرى كثيرة. وكثيرا ما رآه الناس في
ساعات خروجه إلى المدينة يمشي وهو يحدث نفسه ويقول
أشياء غريبة لا يعلمها عامة الناس.

الفصل الرابع

لا أحد صدق أن من بين الموقوفين في قضية الانتماء إلى التنظيم السري التي شاع خبرها بين الناس بعد أن نشرت الصحف أسماءهم وصورهم يوجد سامح ابن رئيس الشعبة الدستورية الذي طالما خطب في الناس.. لا يفرض زيارة أي وزير أو مسؤول كبير ليكون أول المتكلمين المشيدين بجهود الدولة والنظام في رعاية شؤون الناس والعناية بضعاف الحال وليؤكد أن الدولة لا تدّخر جهداً في سبيل تحقيق كل ما يسعد الناس.. فكيف يكون ابنه سامح الشاب الذي درس في الجامعة على نقيضه تماماً.

قال أحد الحاضرين في مجموعة كانت تقرأ الخبر وتأمل صور الموقوفين في الجريدة:

- أنا لا أصدق.. أنا أعرف سامح هو شاب مهذب ولطيف. صحيح هو منذ أن كان يدرس في الثانوي كانت له أفكار تختلف عن أفكار والده ولكن لا أعتقد أن يصل به الأمر إلى حد أن يكون معارضا وينتمي إلى تنظيم سري.

- أجابه فتحي وكان على مقربة منه : لا تحكم بالظواهر.. كل الشباب الذين ذهبوا إلى الجامعة تغيرت أفكارهم، لقد أرسلناهم ملائكة وعادوا إلينا شياطين.. لقد اختلطوا في الجامعة بشباب من جهات أخرى يحملون أفكارا قبيلا أنها هدامة.

وانبرى ثالث - أنكم تتحدثون عن أشياء لا تفهمونها جيدا.. أنا عندي معلومات أن سامح منذ أن التحق بالجامعة استهوته تيارات طلابية كانت تحمل أفكارا مناوئة للنظام وقيل أنه كان يتردد في البداية خلصة على اجتماعات هذه المجموعات ثم أصبح بعد مدة من العناصر

الفاعلة.. وساعدته قدرته الخطابية على ذلك.. قيل أنه كان يخطب في الجماعة فيقنعهم بكلامه وله خطب مؤثرة لأنه كان يقرأ الكثير من الكتب الوافدة والتي تحمل أفكارا شيوعية وتقدمية.

قال طاهر في الطاولة المقابلة : سامح هذا شاب خطير. منذ ن كان يدرس في الثانوي كان يحفظ عن ظهر قلب خطب عبد الناصر.. وكان يرى فيه زعيم الأمة العربية الأوحد. كان يقول في خطبه إن الأمة العربية فقدت بوفاته زعيم القومية العربية، وملهم الشباب الأوحد. كان يريد أن يؤثر في أصدقائه وزملائه. ويريدهم أن يكونوا أيضا من أنصار التيار الناصري وهو ككل الشباب من جيله كان معجبا بخطب جمال عبد الناصر وتوجهه القومي. وقد ضبطت عنده العديد من الكتب التي تتحدث عن التيار العروبي القومي فعاجله سعيد ... مهلك يا رجل

أنت تعرف كل هذا عن سامح، كيف عرفت كل هذا ؟ هذه مجرد أقاويل لا سند لها. كيف يكون سامح وهو ابن رئيس الشعبة الدستورية حاملا لهذه الأفكار الهدامة.. نحن نعرف سامح منذ أن كان صغيرا فقد كان مغرما بالمطالعة على عكس الكثيرين من أبنائنا.. وعندما كان في التعليم الثانوي وقد درس مع أبنائنا كان أكثرهم تفوقا.. وكان يكتب الشعر..

قال طاهر لو أن والده الذي طالما أتعبنا بخطبه العنترية والتي تدعو إلى الانضباط الحزبي صرف وقته في رعاية ابنه لكان أفضل له ولنا.. ماذا يقول الآن وصورة ابنه سامح تتصدر مجموعة الموقوفين بتهمة الانتماء إلى تنظيم سري يخطط للقيام بأعمال ضد الدولة وتوجهاتها ؟

الفصل الخامس

... كانت الجامعة تغلي كالمرجل.. وكل التيارات السياسية متواجدة.. وكل تيار يريد أن يفرض نفسه وتكون له الكلمة العليا.. لم تكن الجامعة في معزل عما يجري خارج أسوارها.. فالبلاد كانت تعيش وضعاً صعباً نتيجة تأزم الأوضاع السياسية.. وانسداد الآفاق..

كان سامح القادم من أعماق مدينة في الجنوب التونسي حديث الالتحاق بالجامعة.. بعد أن نجح بتفوق في امتحان شهادة البكالوريا.. وتمّ توجيهه إلى كلية الحقوق لطالما حلم والده بأن يرى في حياته ابنه سامح وقد تخرّج محامياً أو قاضياً.. كان في مجالسه يتحدث عن تفوق ابنه سامح في الدراسة وإعجاب أساتذته به إلى حدّ كان يزعج

من يستمعون إليه فهو يبالغ كثيرا في الحديث عن ابنه. كان سامح طالبا جديدا في كلية الحقوق وسعيدا بتوجيهه إلى هذه الكلية ليحقق حلم والده وأيضا حلمه الشخصي. فقد كان في دراسته الثانوية يحلم بأن يكون قاضيا أو محاميا أو صحفيا ولكنه كان يغلب رغبته في أن يكون محاميا بعد التخرج من الجامعة على رغباته الأخرى.

يذكر أن أستاذ الفلسفة كان كثيرا ما امتدح كتاباته وكان يقول له أنك تملك موهبة قل وجودها بين أقرانك في التحليل والكتابة بالعربية الصحيحة وعدم تعويم الموضوع الذي تكتبه.

في الجامعة وجد سامح نفسه غريبا نوعا ما على أجواء الجامعة خاصة بعد مضي فترة على التحاقه بكلية الحقوق التي كانت تضم خيرة أبناء المجتمع وكان يحسد نفسه على وجوده بين هؤلاء الذين كان بعضهم يأتي إلى

الكلية بسيارته الخاصة. أكيد أن هؤلاء ينحدرون من عائلات ميسورة وثرية وإلا ما ملك الواحد منهم وهو ما زال طالبا سيارته الخاصة مع ما كان يظهر عليهم من علامات اليسر مثل تدخين السجائر الفاخرة واللباس الأنيق بينما هو كان يعيش على المنحة الجامعية.. وبعد مضي مدة بدا سامح هذا الفتى الخجول يتخلص من خجله خاصة بعد أن تعرّف على زميلته إيمان التي تحاول إدماجه في الأوساط الجامعية وازدادت إعجابا به لما استمعت إليه لأول مرة بينما كانا لوحديهما في مقهى الكلية يقرأ عليها بعض قصائده.

قالت له إيمان : أنت شاعر إذن.

قال لها في استيحاء : لا.. لا هي مجرد محاولات بدأتها عندما كنت في المعهد وكنت انشر بعض هذه القصائد في المجلة الحائطية.

اقتربت إيمان منه كثيرا ثم طبعت على خذّه قبلة
فاجأت سامح. كاد سامح أن ينهار. فلم يكن ينتظر من
إيمان الطالبة التي تبدو عليها علامة الثراء من خلال
لباسها الأنيق وسيارتها الخاصة الصغيرة ذات اللون
الأحمر أن تطبع على خذّه تلك القبلة الساخنة وأن تبدي
إعجابها بشعره.

بقي مسمرا في مكانه وإيمان تنتظر إليه وقد انفتحت
شفثاها على ابتسامة لم ير أجمل منها في حياته ثم أخذته
من يده لتتنقه من ذهوله وسارا معا إلى حيث ركنت سيارتها
وقالت له :

- اصعد

- اصعد ؟

نعم اركب.. مالك متوترا.. سأخذك إلى حيث
تتخلص من ارتباكك. ما إن جلس سامح على الكرسي
حتى أدارت إيمان المفتاح وانطلقت بهما سيارتها.. ثم
امتدت يدها إلى مسجل السيارة ووضعت شريطا خرج منه
صوت يحبه كثيرا سامح ولطالما استمع إليه في خلواته في
بيتهم، إنه صوت الشيخ إمام يتغنى بأشعار أحمد فؤاد نجم.
- يا الله وبدون استئذان.. شرع يردد مع الشيخ إمام
أغانيه في انتشاء غريب وقال لصديقه إيمان : أنت أيضا
من عشاق الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم. أومأت برأسها
ضاحكة وواصلت قيادة سيارتها التي كانت أشبه بغزالة
شاردة في الصحراء..

الفصل السادس

كان الفصل بداية شتاء.. وكان الطقس باردا..
سنتها نزلت أمطار غزيرة على البلاد في الشمال والوسط
والجنوب وفاضت الأودية وامتلأت السدود فوق طاقتها من
المياه التي تجمعت من الأودية والمجاري والسيول..
وجاءت الأخبار أن المياه التي نزلت بغزارة في قمودة
وقفصة وفي عدة مدن من الشمال قد غمرت العديد من
المنازل واقتلعت الأشجار.

فاض وادي الفكة وفاض وادي بياش وعزلت مدينة
قفصة كما عزلت مدينة قمودة. ولكن الوطأة كانت أشد في
مدينة قفصة. لقد عزل فيضان وادي بياش المدينة..
وانقطع عنها المدد.. كانت مياه وادي بياش الهادرة ترعب

السكان.. واستبد الخوف بالأهالي. لا بد أن كارثة قادمة..
كان فاكسر سنتها في سنته الأولى من التعليم الثانوي.. ما
زالت صور الأحداث ملتصقة بذاكرته إلى اليوم.. وهل
ينسى.. مشهد الجثث المسجية في مستشفى الحسين
بوزيان.. وقد غطيت برداء أبيض بعد أن جرفت المياه
عندما غامر سائق الشاحنة بشق مياه وادي بياش الهادرة..
ولكن في منتصف المسافة قلبت المياه الشاحنة التي كانت
تقل عددا من زملاء فاكسر الذين كانوا يدرسون معه في
نفس المعهد ومنهم من كان زميله في القسم..

جرفت مياه وادي الفكة الشاحنة وجرفت معها
التلاميذ.. وذهبت بهم بعيدا.. بعيدا.. هاجت قفصة
وماجت.. لقد قصرت السلطة في القيام بواجبها.. وتسببت
في ما لحق بالمدينة من كارثة أكثر من خمسة وعشرين
تلميذا في عمر الزهور.. تجرفهم المياه وترمي بجثثهم في

أطراف الوادي المترامية على مسافات طويلة. جاء الخبر
الحزين في تلك الليلة.. لقد جرفت مياه وادي بياش أبناء
القصر. آه يا للوعة المدينة ويا للوعة الأهالي، نحيب
وعويل في كل دار ومآتم هنا وهناك قفصة المدينة
المنكوبة، لولا إهمال السلطة وتهاونها في القيام بالواجب ما
جرفت المياه خمسة وعشرين تلميذا. إنها الكارثة.

كانت الأنباء الواردة من مدينة قمودة ومن مدينة
المكناسي لا تقل وطأة عن الأخبار القادمة من جهات
الشمال. مدينة المكناسي التي يطوقها وادي اللبن الذي
يسمع هدير مياهه من مسافات بعيدة، لقد فاض وادي الفكة
وهاجمت المياه المدينة وغمرت المنازل.. وتشبث الناس بما
كانوا يملكونه من ألواح وخشب للنجاة من الهلاك والموت
المحقق.. عائلات بأكملها جرفت المياه وذهبت بها إلى

حيث لا مكان وإلى اليوم لا يعرف الناس أين ذهبت المياه
بتلك الجثث التي جرفتها.

الوطأة كانت شديدة والكارثة كانت ثقيلة في قفصة
وقمودة والمكناسي، يا لهول ما رأى فاكراً وما اختزنت
ذاكرته. قيل يومها أن من أصدر التعليمات بشق مياه
الوادي الهادرة هو المسؤول الأول عن الولاية.. وقيل أنه تمّ
تهريبه ليلاً بعد أن وصلت أخبار الكارثة إلى السلط العليا
فخافوا عليه من انتقام الأهالي والعائلات التي فقدت أبناءها
فقاموا بتهريبه.. لا تزال مشاهد الجثث المسجبة في
مستشفى الحسين بوزيان تؤرق ذاكرة فاكراً. بعد يومين أو
ثلاثة عندما هدأت مياه الوادي انطلقت فرق البحث عن
الجثث وتمّ انتشال العديد منها وتمّ تجميعها كلها في
مستشفى الحسين بوزيان في موكب حزين، ونظم الأهالي
جنازة جماعية لأبنائهم الذين جرفتهم المياه.. بقيت المدينة

حزينة لأشهر عديدة ولم يزر أي مسؤول المدينة بعد تلك
الكارثة خشية من انتقام الأهالي وما زالت المدينة غاضبة
إلى اليوم..

الفصل السابع

كانت الفضاءات الجامعية في تلك الفترة من بداية السبعينات هي المتنفس الوحيد لجيل كامل من الطلبة.. للتعبير عن آرائهم وأفكارهم.. وكانت عين النظام ترصد هذه التحركات.. ولكن الطلبة لم يكن يخيفهم ما كانوا يتعرضون له من ملاحقات.. لم يجد عصام الطالب القادم من إحدى ولايات الوسط والذي يدرس بالمدرسة العليا للفلاحة صعوبة في الاندماج في هذه الأجواء الجامعية.. التي كانت مشحونة إلى حد كبير..

عصام منذ أن كان تلميذا بالمعهد الثانوي يحفظ الكثير من خطب الزعيم الشيوعي لينين.. وكان يعتبره زعيم الفكر الاشتراكي الذي نظر له كارل ماركس بلا منازع حتى أنه عوقب بالطرد لمدة أسبوع من المعهد الذي كان يدرس

به لأن القيم العام الخارجي ضبطه بنفسه في جانب من
ساحة المعهد يشيد بخصال الرئيس جمال عبدالناصر
الاشتراكية أمام عدد من زملائه.. فلم يغفر لعصام أن
يتحول إلى تلميذ مارق كما وصفه في تقريره الذي رفعه إلى
المدير وليتم بمقتضاه طرد عصام من المعهد لمدة أسبوع
والتنبيه عليه وعلى والده.. وكأنه ارتكب جرماً خطيراً..

لم تكن هذه الحادثة هي الوحيدة في تاريخ عصام..
فقد تمت دعوته إلى مركز الأمن في إحدى المناسبات لأنه
قرأ في نادي هواة الأدب قصة قصيرة أمام زملائه بعنوان
"الثور الذي بلغ عتياً".

يومها طلب من عصام أن يقول لرجال الأمن إلى
ماذا كان يرمز بالثور الذي بلغ عتياً.. لم يتقطن عصام
عندما كان يقرأ القصة إلى أن هناك أعينا تراقبه وتستمع
إلى قصته التي يبدو أنه يرمز من خلالها إلى رئيس البلاد
ووصفه في قصته بالثور الذي بلغ عتياً.

وكيف يتجاسر هذا الفتى الريفي القادم من أعماق
قرية نائية على وصف رئيس البلاد بالثور ؟ وتمّ إيقاف
عصام لمدة ثلاثة أيام على ذمة التحقيق وكان في كل مرة
يطلب منه أن يقول لهم من هو الثور الذي بلغ عتيا.

أما هو فكان يقول لهم أنه استوحى أحداث قصته
من حياة ثور يملكه أحد مربى الأبقار في قريتهم.. اشتراه
صاحبه منذ سنوات وحافظ عليه لأنه في نظره فحل لا
مثيل له ورغم أن الثور بدا يهرم فإن صاحبه لم يفرط فيه
لأنه في نظره من صنف الثيران النادرة..

أما رجل الأمن الذي كان يستنطقه فلم يصدق هذه
الحكاية.. وعاجله في مرة أو مرتين لم يعد يذكر عصان
بصفعة لم ير مثلها في حياته :

- اسمع يا ولد.. نحن نعرفك.. منذ أن ضبطنا
عندك مجموعة من الكتب التي كانت تحوي خطبا لجمال

عبد الناصر وشوقي القوتلي.. اسمع يا ولد لا تتعبنى..
من هو الثور الذي تحدثت عنه في قصتك ؟

ويصر عصام على أن الثور الذي يقصده هو الثور
الذي يعرفه. ولم يتم إطلاق سراح عصام إلا بعد أن تدخل
أحد المسؤولين المحليين وطلب من عصام أن يكتب تعهدا
بالإقلاع نهائيا عن ممارسة أي نشاط مشبوه. استحضر
عصام هذه الأحداث التي ولدت في نفسه حب التمرد
والرغبة في الثورة على ما كان يعتبره استمرار ما لا يجب
استمراره...

أوقفت إيمان سيارتها وكان بجانبها سامح زميلها في
كلية الحقوق أمام أول مقهى اعترضهما.. بعد أن بدا
المطر ينزل بكثافة.

قالت له : - تعال نشرب قهوة.

خير سامح البقاء في السيارة على النزول مع إيمان
والجلوس في المقهى. هو لا يحب الجلوس في المقاهي منذ

ان كان تلميذا ولكن إيمان أصرت على النزول. قالت له
إنني أشعر برغبة كبيرة في الجلوس هنا في هذا المقهى
البعيد نسبيا عن ضوضاء المدينة..

قالت له إنني كلما شعرت بالضجر آتي إلى هذا
المقهى وأجلس لوحدي وأستمتع بشرب قهوة ساخنة وتدخين
سيجارة فاخرة.

إيمان ابنة أحد المسؤولين الكبار في إحدى
الوزارات. ويظهر ذلك من خلال الملابس التي كانت
ترتديها والتي كانت تغيرها كل يوم ومن خلال السجائر
الفاخرة التي كانت تدخنها فضلا عن امتلاكها لسيارة
خاصة.

أخذت إيمان سامح من يده قاطعة أمامه كل تردد
ودخلا معا إلى المقهى على وقع زخات المطر.

الفصل الثامن

قرر الطلبة مقاطعة الدروس.. وأصبحت ساحة الكلية تعج بحلقات الطلبة الغاضبين.. في كل حلقة كان يعلو صوت خطيب يخطب في زملائه الطلبة.. هذه مجموعة اليساريين وهذه مجموعة القوميين وهذه مجموعة الاسلاميين.. كانت الأجواء مشحونة إلى حد كبير..

وقرر الطلبة النزول إلى الشارع في مسيرة احتجاجية على زيارة أحد وزراء الدول العظمى.

- كيف تسمح الدولة لهذا الوزير بزيارة البلاد وبلاده مورطة في الاعتداء على دولة شقيقة ؟

خطب جمال في زملائه الطلبة.. مستعينا بما قرأه في الكتب السياسية من تحاليل وخطب لزعماء سياسيين

وكانت كلماته تنفذ إلى وجدان زملائه فيتفاعلون معها
بالهتاف وترديد الشعارات الحماسية.

- إن هذا اليوم يومكم أيها الأحرار.. لا يمكن
السماح باستباحة الوطن.. يجب أن نتصدى لمحاولات
ابتلاع الوطن والهيمنة الأجنبية.

كان جمال يدرك جيدا المصير الذي ينتظره.. هو
لا يأبه بهذا.. قرر الطلبة مهاجمة المركز الثقافي التابع
لأحد الدول الكبرى.

سيتصدى البوليس لا محالة وسيهاجم الطلبة
الغاضبين وسيستعمل كل الأسلحة لصددهم عن الوصول
إلى مبتغاهم، هيبة الدولة يجب أن تكون فوق كل اعتبار.

جمال هذا الشاب القادم من إحدى ولايات الجنوب..
يمتلك موهبة في الخطابة تساعد على التأثير في زملائه.

هو ابن أحد اليوسفيين.. الذين حاكمهم النظام بتهمة الانتماء إلى الأمانة العامة. وحوكم بخمسة سنوات سجن. كان والده من أنصار الزعيم صالح بن يوسف.. وكان من أشد المتشعبيين له عندما تمت محاكمة والده وحوكم بخمس سنوات سجن ومثلها سنوات نفي إلى ولاية أخرى كان عمر جمال لا يتجاوز الخمس سنين. يتذكر جيدا محاكمة والده التي كانت تذاع في الإذاعة إلى جانب من قبض عليهم من أنصار التيار اليوسفي وقرر النظام محاكمتهم.. كانت الأحكام قاسية، جمال كان في تلك السنة في الخامسة من عمره.. قيل له أن والده ينتمي إلى تيار معارض للنظام ويريد النظام أن يعاقبهم على هذا الانتماء ولطالما سمع جمال عندما كبر حكايات عن الخلاف اليوسفي البورقيبي.. لم ير جمال والده إلا مرة واحدة بعد أن خرج من السجن. فقد كان مطالبا بقضاء فترة النفي بعد خروجه

من السجن في إحدى ولايات الشمال.. إلا أن القدر لم
يمهل والده طويلاً.. فقد توفي والده بعد مدة قصيرة من
خروجه من السجن.

شب جمال على رغبة جامحة تسكن قلبه في
الانتقام من الذي حرمه من عطف والده ككل الأطفال
الآخرين. وكان يتساءل ماذا لو سمح بوجود تيارين
سياسيين في البلاد.. ألا يكون ذلك أفضل للوطن
والشعب.. وتكون هناك حرية في الانتماء السياسي..

كانت أسئلة كثيرة تجوب بخاطر جمال كلما تذكر
أن والده قد دفع ضريبة حرите في اختياره السياسي. أليس
من حقه أن ينتمي إلى تيار سياسي يختلف عن التيار
السياسي القائم في البلاد ؟

في الجامعة تعرف جمال على لبنى الطالبة القادمة
من إحدى ولايات الوطن القبلي وكانت معجبة بفصاحته
وشجاعته في التعبير عن آرائه وقدرته الخطابية. لبنى ابنة
أحد فلاحي الوطن القبلي.. والدها فلاح كبير يملك عقارات
وأراضي وحقول مزروعة كلها من مختلف أصناف
البرتقال..

تعرفت لبنى على جمال من أول يوم في الجامعة..
فقد كان جمال شابا وسيما أسود الشعر عيناه خضروان
ووجهه قمحي اللون. اقتربت لبنى من جمال وكانت هي
الأخرى على غاية من الجمال ككل بنات الوطن القبلي.

في مقهى قريب من الكلية جمعهما أول لقاء..
وزدادت لبنى إعجابها بجمال لما عرفت أنه ابن مناضل
سياسي حوكم لأجل انتماءاته اليوسفية. ومات في سبيل
مبادئه. أحبت لبنى جمال.. هي لا تعرف ما الذي جذبها

إليه. كان يمكن أن تختار صديقا غيره. ولكن إحساسا داخليا لا تقدر على تفسيره كان يقول لها في صمت.. هذا هو فارسك الذي تحلمين به.

كانت لبنى لا تفارق جمال أبدا وتحضر كل الحلقات التي كان يخطب فيها في الطلبة. كانت الزغاريد التي تتبعث من الحلقة هي زغاريدها.. وأمام تعطل الدروس بالكلية قبض على مجموعة من الطلبة كان من بينهم جمال ولبنى وآخرين. أخذوهم إلى عميد الكلية.. وكان رجلا صعبا طويل القامة قوي الجثة أصلع الرأس.. كان عدد الطلبة الذين أتى بهم الأمن الجامعي إلى مكتب عميد الكلية لا يتجاوز العشرين طالبا بين ذكور وإناث.

ما إن دخل الطلبة وكانت علامات الغضب بادية على العميد حتى بادروهم بالقول: أنتم هنا للدراسة وليس للثورة.. اسمع أنت يا فلان موجهها الخطاب إلى جمال..

نحن نتابع كل حركاتك.. اسمع لقد تحملناك كثيرا.. أنت هنا عنصر تخريب. حاول جمال مقاطعة كلام العميد. إلا أن العميد واصل كلامه غير آبه برغبة جمال في الكلام.

- لن أسمح بعد اليوم بالعبث.. أتيتم للدراسة.. من أراد الثورة.. الثورة مكانها ليس هنا.. لن أسمح بعد اليوم بأن تتحول الكلية إلى فضاء للمزايدات السياسية. ثم التفت إلى لبنى :

- اسمعي أنت أيتها الطالبة.. أعرف أنك تشجعين صاحبك بالزغاريد والهتافات. أعرف عنك كل شيء. بعد اليوم لن أسمح بهذا العبث. لا مناشير ولا اجتماعات.. هل سمعتم. عندي تعليمات بأن أسلمكم إلى الأمن.. ولكن هذه المرة لن أفعل.. لن تكون مضرركم على يدي..

الفصل التاسع

من بين كل زملائه.. كان شهاب طالبا منكفئا على نفسه.. قليل الاختلاط بزملائه.. كان فخورا بانتمائه إلى شعبة علم الاجتماع التي تمّ توجيهه إليها بعد نجاحه في البكالوريا.. لم يكن منجذبا كبقية زملائه الطلبة إلى ما كان يدور في الجامعة من حراك طلابي سياسي.. كل همه كان أن ينجح في دراسته ويعود إلى مسقط رأسه ليسعد قلب والده وقلب والدته والجيران.. والده عامل يومي.. ولولا أن رئيس الشعبة يقدر ظروفه فكان يسجله باستمرار في الحضيرة الموسمية ما كان له أن يقدر على أن يوفر متطلبات الدراسة لشهاب ولبقية إخوته الآخرين..

عندما نجح شهاب في البكالوريا أقام له والده احتفالاً. ودعا الأهل والجيران لمشاركته في نجاح ابنه.. ويومها اشترى شاة سمينه وأولم للأهل والجيران وكانت قصاع الكسكسي باللحم حاضرة.. حيث أكل الجميع وكانت ليلة من أحلى ليالي القرية..

قدم شهاب إلى العاصمة لأول مرة وسجل في كلية علم الاجتماع.. هو يحب هذا الاختصاص وخلال الصائفة التي تلت نجاحه أمضى أياما وليال يقرأ مقدمة ابن خلدون واضع علم الاجتماع فازداد فخره بأن تم توجيهه إلى هذه الشعبة مع ما كان يتمتع به من موهبة في الكتابة الأدبية... فعندما كان في المعهد الثانوي كثيرا ما نشر بعض أقاصيصه وأشعاره في مجلة المعهد.. وكان أساتذته يشجعونه على مواصلة الكتابة وصقل موهبته الأدبية بمزيد الإقبال على القراءة والمطالعة..

هو معجب بالمسعودي رغم ما يعتري أسلوبه في الكتابة من صعوبة في الفهم.. قرأ كتاب السد وأعجب به ويعجبه صراع غيلان من أجل البقاء والاستمرار كما يعجبه تماهي ميمونة.. وبقية شخصيات الرواية التي أبدع فيها المسعودي.. ويردد في إعجاب بعض مقاطع الرواية وتعجبه شخصية الكائن الخرافي الذي استنبطه.

أمضى شهاب عامه في الدراسة لم يكن يأبه بما يدور خارج أسوار الجامعة، كان يقول في قرارة نفسه :

- أبناء الفقراء لم يولدوا للسياسة أنا هنا للدراسة والنجاح.. السياسة لاولاد الأغنياء والأثرياء.

تعرف بعد مضي فترة من الدراسة على زميلته سحر التي كانت تدرس معه في نفس السنة.. هي ابنة إحدى ولايات الشمال وكانت على قدر كبير من الجمال، أغلب

زملائها يتمنون التفاتة منها ولكنها اختارت.. شهاب.. كانا
يمضيان أوقات فراغهما معا ويراجعان معا في مكتبة الكلية
ويخرجان معا في أوقات الراحة.

سحر هي الأخرى محبة للأدب والفن ولأول مرة
سمع شهاب من سحر أغان كانت ترددها لما يكونان معا.
قالت له هذه الأغاني هي من نوع الأغاني الملتزمة.. كانت
تردد أمامه أغاني يطرب لها شهاب وتستهويه كلماتها
ومعانيها مثل الأغاني التي كانت على لسان أغلب شباب
تلك المرحلة والتي كان يؤديها الشيخ إمام وفرقة البحث
الموسيقي بقابس // هيلة هيلة يا مطر // أغنية يحبها كثيرا
شهاب. كانت هذه الأغاني تملأ كيانه.. وكثيرا ما طلب من
سحر أن تغنيها له لما يكونان في فسحة أو نزهة..

وسحر تتمتع بصوت جميل.. وتحفظ الكثير من
أغاني تلك المرحلة.. هو يدرك أن تلك الأغاني الملتزمة

تحولت إلى أناشيد ثورية عند أغلب زملائه الطلبة.. أغان
كان النظام يمنع بثها في الإذاعات ولكن الشباب كان
يتابعها عبر المنتديات الثقافية الطلابية. وبدأت هذه
الأغاني تستهوي شهاب وتحرك في داخله إحساسا غريبا
بدا يشعر به لأول مرة.. إحساس غزته لديه زميلته سحر..
الوضع العام بالبلاد في تلك السنة شديد التآزم..
أحداث واضطرابات في عديد الجهات الداخلية وفي الكليات
أيضا. وذات مرة داهم البوليس اجتماعا طلابيا في فضاء
الكلية.. وحاصر كل الطلبة الحاضرين.. وأراد إلقاء القبض
عليهم واقتيادهم إلى مراكز الأمن للتحقيق معهم.. تفرق
الطلبة في كل اتجاه حتى لا يلقي البوليس عليهم القبض..
فيهم من التحق بالقاعات وفيهم من اختبأ في بعض
الأركان وفيهم من جرى وقفز أسوار الكلية.

يذكر شهاب الذي جرى مع بقية الطلبة هارباً أن
زميلته سحر كانت وراءه وأنها قفزت بصعوبة السور العالي
وكادت تصاب بكسر في ساقها لأنها ارتطمت بكس من
الحجارة عندما قفزت السور وتمزق بنطلونها الجديد
وقميصها.. حملها شهاب فوق ظهره عندما عجزت هي عن
مواصلة السير...

الفصل العاشر

ركنت إيمان سيارتها.. قرب شارع جون جوراس..
ونزلت من سيارتها ومعها زميلها سامح.. الطقس جميل مع
نسمة خفيفة تهب على الوجوه بعد نزول المطر.. قالت
إيمان :

- سأخذك إلى مكتبة الكتاب.. أعرف أنك مغرم
بالمطالعة وتحب الاطلاع على آخر الاصدارات.
- قال سامح :

- اختيار جيد.. أنت تعرفين أنني أعشق الكتب
وحضور الأنشطة الثقافية ازدانت واجهة مكتبة الكتاب
بآخر العناوين.. وكان بعض المارة يتوقفون لتأمل ما حوته
الواجهة من عناوين جديدة. من كتب ومجلدات

وموسوعات. مكتبة الكتاب هي أشهر المكتبات في العاصمة وهي التي تأتي بآخر ما صدر من كتب لعرضها في تونس..

دلفت إيمان ووراءها سامح إلى داخل المكتبة التي كانت شبه ملآنة بالرواد من الرجال والنساء والشباب والأطفال. اعترضهما أحد العاملين في المكتبة مرحبا.. فقد اعتادت إيمان أن تأتي إلى هذه المكتبة باستمرار لتشتري ما يروق لها من كتب.. أما سامح فإنه يزورها لأول مرة. كان يجول ببصره في أروقة المكتبة وأجنحتها متأملا ما حوته من كتب ومجلدات بمختلف اللغات.

كم تمنى سامح في لحظة تأمله أن يكون صاحب إحدى الكتب المعروضة هنا في هذا الفضاء السحري لا شيء يعلو على مكانة الكتاب. الكتب هنا على كل لون

وشكل. التراجم بجانب الروايات بجانب الدواوين الشعرية
بجانب الموسوعات.

- يا الله ما هذا العالم الجميل.

ابتعدت إيمان قليلا عن سامح.. تركته في ذهوله..
لم تشأ أن تقطع عليه لحظة سعادته بتأمل الكتب التي
يحبها ويعشقها. تمنى لو كان يملك مالا كثيرا ليشتري ما
يحب من الكتب. توقف أمام كتاب كان بسيطا في إخراجه
ولكن عنوان الكتاب لفت انتباهه "أقسمت على انتصار
الشمس" فتحه فإذا هو ديوان شعر.. لشاعر اسمه مختار
اللغمانى لطالما سمع بهذا الاسم.. كانت أشعاره تلقى في
الجامعة من قبل عدد من زملائه الطلبة. وقيل أن هذا
الشاعر توفي صغيرا وكان سابقا لعصره.. أشعاره ثورية
يرردها الشباب ويحولونها إلى أناشيد. أقسمت على انتصار
الشمس.. توقف طويلا عند العنوان.. كان الشاعر من

خلال هذا العنوان يقول أنه لا بد للشمس أن تنتصر تتير
الدروب وتضيء الكون وتدفع السحب إلى التراجع.

أتمت إيمان جولتها في أجنحة المكتبة وسامح لا
يزال واقفا متسمرا وبيده الديوان الشعري الصغير... اشترت
إيمان كتابين وعادت لتجد صديقها في نفس المكان.

قالت له :

- ماذا... ما الذي أعجبك ؟

- هذا الديوان شدني عنوانه.

- وما هو ؟

- أقسمت على انتصار الشمس.

أدركت إيمان أن عنوان الديوان وجد هوى في نفس

سامح. قالت له :

- هل ستقتنيه ؟

قال لها :

- وهل عندك شك.. ولكن هل تعرفين الشاعر ؟

ردت إيمان :

- نعم سمعت عنه اسمه مختار اللغمانى.. ولكنه

توفي صغيرا.

- يا لعبث الأقدار.. وأنت ماذا اشتريت ؟ كان

سامح يريد أن يعرف ماذا اقتنت إيمان من جديد الكتب.

أجابت إيمان :

- أنا تستهوينى الرواية.. لا أميل إلى الشعر كثيرا..

وأضافت أحب مطالعة الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية

وأحب من الروائيين العرب نجيب محفوظ وإحسان عبد

القدوس.. ومن التونسيين يعجبني البشير خريف.. لقد قرأت

روايته الدقلة في عراجينها، إنها رواية ممتازة كما يعجبني
مصطفى الفارسي في روايته المنعرج. ولم تمهل سامح
ليتكلم. وأخذته من يده وقالت تعال ندفع ثمن ما اشترينا من
كتب.. لقد مر الوقت سريعا هنا في المكتبة.

الفصل الحادي عشر

بدا النهج الضيق الذي يربط بين ساحة القسبة وبطحاء باب الجزيرة والذي يقسم المدينة العتيقة مزدحما بالمارة وأغلبهم من السواح الذين كانت تستوقفهم الدكاكين على جانبي النهج تعرض نماذج مختلفة من الصناعات التقليدية والأواني النحاسية.. في بداية النهج من ناحية القسبة بدا عدد من رواد المطعم يأخذون أماكنهم لتناول وجبة الغداء..

هنا في هذا المطعم.. تعترضك رائحة الأكلات المتنوعة ما إن تقترب منه.. رائحة أكلات الكسكسي والمقرونة والسمك المشوي ولحم الدجاج المشوي وأنواع أخرى من الأكلات الشهية.

ما أن تدلف إلى هذا النهج من ناحية القسبة حتى
تعترضك روائح البخور وأنواع العطورات المختلفة.. وفي
مدخل النهج يقف جامع الزيتونة المعمور شامخا.. خرج
جمال من مكتب عميد الكلية ومعه لبني.. قال لها :

- أحتاج إلى فسحة في أزقة المدينة العتيقة.. هناك
وأنا أتجول أشعر بالراحة وتعود إلي الطمأنينة ويخفت
توترتي..

عبر جمال ولبنى ساحة القسبة حيث انتصبت
بنايات عديد الوزارات بحرسها رجال الأمن ومن هناك دلفا
إلى نهج جامع الزيتونة عبر مستشفى عزيزة عثمانة.. كان
هناك عدد من المرضى القادمين من عدد من ولايات
الشمال الغربي بساحة المستشفى الخارجية.

قالت لبني مخاطبة جمال :

- لماذا ركز العميد كل كلامه عليك.. ألا يوجد

زملاء آخرون يتحركون ؟

قال جمال في زهو :

- لكل من اسمه نصيب.

فهمت لبنى إشارة زميلها جمال وازدادت التصاقا به.

- يا سيدي.. نحن هنا.

لقد حكى لي والدتي أن والدي كان معجبا جدا

بجمال عبد الناصر.. وكان يعتبره زعيم العروبة الأوحد.

ولذلك أسماني جمال.. كان يحب أن يبقى اسم جمال دائماً

التردد في البيت.

قالت لبنى :

- أنت محظوظ.. لأنك تحمل اسم زعيم عربي

كبير.

اقترب جمال ولبنى من جامع الزيتونة.. توقف
جمال وكأنه يكتشف المكان لأول مرة. ثم قال مخاطبا
زميلته لبنى :

- هل تعرفين أن والدي درس هنا.. هل تعرفين أن
سواري هذا الجامع تشهد بأن والدي كان هنا.. طالبا من
طلاب العلم في هذا المعلم.. وتمادى جمال في الكلام جاء
والدي من قريتنا البعيدة ليلتحق بجامع الزيتونة المعمور
ويدرس به بعد أن نال شهادة الأهلية في الفرع الزيتوني
بقفصة.. وهنا في هذا الجامع درس والدي على أيدي كبار
المشائخ الطاهر بن عاشور والفاضل بن عاشور والبشير
العريبي والشيخ النقضي.

لبنى كانت تسمع بانتباه إلى ما كان يرويهِ جمال
عن والده، كان ذلك يحرك إحساسا داخليا لديها هو مزيج
من الاعجاب والفتنة والشفقة. وسرحت لبنى بتفكيرها بعيدا

بينما كان جمال يواصل سرد حكايات عن والده لم ينتبه ربما إلى أن لبنى لم تعد تستمع إليه.

لبنى ابنة أحد فلاحي الوطن القبلي، والدها فلاح ثري يملك مزارع كبيرة لأصناف مختلفة من البرتقال.

التفت جمال إلى لبنى.. وقال لها :

- هنا في هذا المعلم درس والدي إلى أن تحصل على شهادة العالمية وكان يمكن أن يكون أستاذا أو معلما ولكن والدي كان منتميا للتيار اليوسفي.. والدي كما حدثتك كان منتميا لشق الزعيم صالح بن يوسف.. كان متشيعا له منذ أن انتمى إلى جماعة الطلبة الزيتونيين الذين يعارضون التوجه البورقيبي.

قالت لبنى :

- إذن والدك كان معارضا لسياسة الزعيم بورقيبة.

قال جمال :

- والدي كان يحمل في قرارة نفسه تقديرا للزعيم
بورقيبة. ولكنه كان يعارض سياسته وتوجهاته.

وأضاف جمال :

- والدي كان يعتبر مع شق صالح بن يوسف أن
الاستقلال الداخلي خطوة إلى الوراء، أما بورقيبة فكان
يعتبر الاستقلال الداخلي خطوة أولى في تحقيق الاستقلال
التام.. وكانت هذه بداية الخلاف بينهما.

أرسل جمال تهيدة كبيرة ثم أخذ بيد صديقه لبنى
وأخذا مكانهما في أول طاولة شاغرة بالمطعم القريب من
جامع الزيتونة.. فقد كانا يحسان برغبة شديدة لتناول وجبة
من السمك المشوي مع الكسكسي.

الفصل الثاني عشر

توقف عبد الفتاح أمام مدخل الكوليزي الشهير بالعاصمة.. بعد ان قطع شارع الحبيب بورقيبة قادما من نهج ابن خلدون.. أمام مدخل الكوليزي توقف عبد الفتاح طويلا يتأمل المعلقة الدعائية لفيلم سنمائي تعرضه قاعة السينما الموجودة داخل مبنى الكوليزي.. صورة المعلقة تظهر فيها ممثلة شبه عارية وبجانبيها رجل كهل تبدو عليه علامات الوسامة وفي الجانب الآخر من المعلقة صورة لمجموعة من الشباب والفتيات في شبه حلقة رقص.. لم تستهو المعلقة المعروضة كثيرا عبد الفتاح ولم تغوه بالدخول لمشاهدة الفيلم.. رغم أنه من عشاق السينما.. وكان ناشطا جدا في نادي السينما بدار الشباب.

في نادي السينما بدار الشباب شاهد عبدالفتاح
العديد من الأفلام والأشرطة السينمائية التي كان يعرضها
النادي كل مساء سبت وتختم بحلقة نقاش.. أغلب هذه
الأشرطة التي كانت تعرض في النادي أشرطة فرنسية تأتي
من سفارة فرنسا وعديد السفارات الأخرى.. وكان رئيس
النادي هو أستاذ عبد الفتاح في مادة الفرنسية.

هم عبد الفتاح بمواصلة جولته داخل مبنى الكوليزي
حيث المغازات تعرض أحدث ما جاءت به الموضة في
صناعة الملابس للرجال والنساء.. وكذلك العديد من
المحلات الأخرى وتتوسط مبنى الكوليزي مقهى شهير..
في هذا المقهى يجلس عدد من الوجهاء وهو يذكر أنه في
هذا المقهى تعرف على الكاتب // سيد م// وهو في الأصل
مذيع شهير، يقدم برامج ثقافية في الإذاعة في أشكال
وأنماط غير مسبوقه.. لطالما استمع عبد الفتاح إلى هذه

البرامج الإذاعية.. مثل برنامج // ما تسمعه اليوم تقرأ
غدا//.

كان ينتظر موعد إذاعة هذا البرنامج في العاشرة
ليلاً من كل يوم.. تعجبه طريقة صياغة النص وطريقة
التقديم..

تعرف عبد الفتاح الطالب بكلية الآداب لأول مرة
على معدّ ومقدّم هذا البرنامج الذي كان يجلس يومياً في
مقهى الكوليزي.. قدمه إليه أحد الأصدقاء وقال له أنه
شاب معجب ببرامجك الإذاعية وبرنامج "ما تسمعه اليوم
تقرأه غدا" خصوصاً.. ويومها أمضى عبد الفتاح وقتاً رائعاً
مع هذا المثقف الكبير.. وعرف منه أنه شاعر أيضاً وأنه
من جيل أدبي ثائر على التقاليد المتعارفة في الكتابة وهو
من جيل رافض للأنماط الأدبية السائدة جلسته دامت وقتاً
أطول. إلا أن الرجل اعتذر لأن له مواعيد تنتظره في

الإذاعة.. وقبل أن يغادر أهدى نسخة من كتاب له بعنوان
//رافض والعشق معي// كانت أجمل هدية تلقاها
عبدالفتاح. سيفخر بهذه الهدية أمام زملائه الذين طالما
أطلقوا عليه لقب عبدالفتاح قاموس.. لأنه عندما كان تلميذا
في الثانوي حفظ منجد لاروس الصغير كاملا.. فأسماه
زملاؤه عبدالفتاح قاموس.

قرر عبد الفتاح أن يواصل جولته في شارع الحبيب
بورقيبة. خصوصا وقد كانت نسمات المساء تهب خفيفة
وتغوي بالتجوال بعد أن بدأت عصافير أشجار شارع
الحبيب بورقيبة تعود غلى أوكارها محدثة أصواتا أشبه
بالسمفونيات التي يحبها عبد الفتاح.. كانت أمامه محطة
الباساج الشهيرة حيث باعة الزهور على كل لون وشكل..

هو يحب كثيرا تأمل أصناف الورود والزهور
المعروضة.. تذكره بالزهور التي كانت تنبت في سنوات

الخصب بأراضي البلاد. رؤية الزهور وقد تكدست أشكالاً
وألواناً على جنبات هذه المحلات تتعشه وتتبعث فيه شعوراً
لا يقدر على تفسيره.. لطالما أحب ديوان الشاعر الفرنسي
بودلار بعنوان "زهور الشر". لقد أهداه هذا الديوان أستاذه
في مادة الفرنسية سي لخضر القروي عندما تفوق في مادة
الفرنسية في امتحان الثلاثي الثاني مع مجموعة من الكتب
الأخرى أقبل عبد الفتاح على قراءتها.. هو لا يعرف من
الهوايات عند الشباب غير هواية القراءة والمطالعة والذهاب
إلى السينما.

كانت نسيمات المساء تهب خفيفة.. وكان عبد
الفتاح يواصل سيره في شارع الحبيب بورقيبة.. وعلى
جانبى الممشى الداخلي انتصبت كراسي من اللوح كان
يجلس عليها بعض المارة لأخذ قسط من الراحة.

وبدت له بناية الأفريكا وقد توقف قبالتها شامخة..
بطوابقها المتتالية هي أعلى بناية في العاصمة.. ود عبد
الفتاح أن يلج إلى داخل المقهى المفتوح على الشارع إلا أنه
تذكر أن ثمن القهوة هنا مرتفع وهو لا يملك هذا الثمن..
كل ما يملكه وهو الطالب الذي يعيش على منحته
الجامعية. ما يكفي لشرب قهوة في مقهى شعبي ولمجة
عادية وثمان تذكرة الحافلة ليعود إلى المبيت الجامعي

الفصل الثالث عشر

مشى شهاب في شارع الحبيب بورقيبة.. كانت
نسمات الصباح تهب علية فتتعث القلوب والنفوس..
العابرون يحثون الخطى باتجاه مراكز أعمالهم وبعضهم
باتجاه مقاهي العاصمة حيث تعودوا الجلوس كل صباح
لنتناول القهوة وقراءة الصحف.. توقف شهاب عند مقهى
تونس الشهير.. ولفت نظره وجود أعداد كبيرة من رواد
المقهى كانوا موزعين.. كل مجموعة اختارت لنفسها مكانا
مألوفاً في هذا المقهى.. بعض رواد هذا المقهى سفراء
وزراء وولاة سابقين ومديرين عامين.. دفع الفضول شهاب
إلى الدخول إلى المقهى فاعترضته راحة القهوة الممزوجة
بدخان السجائر.. أخذ لنفسه مقعداً وجلس كبقية الرواد لم

تكن تتقصه إلا جريدة يفتحها ويشرع في قراءتها.. مر من أمامه بائع الصحف يحمل رزمة من الجرائد وهو ينادي "جرايد.. جرايد.. عمل. اكسيون. صبح.. لباس". طلب من البائع جريدة الصباح ودفع له ثمنها.. تأمل عناوين الصفحة الأولى.

- الرئيس يقرر تعيين وزير أول جديد ويكلفه بتشكيل الحكومة.

- الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في الأمم المتحدة. لا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي.

- الرئيس الأمريكي كلنتون انفراج باتجاه القضية الفلسطينية وقريبا يستقبل الرئيس عرفات في البيت الأبيض.

سرعان ما طوى شهاب الجريدة.. وتمنى لو كانت
عنده سيجارة.. فقد كان يشعر برغبة أكيدة في تدخين
سيجارة.. هنا في هذا المقهى لا أحد يهتم بأحد.. كل
مجموعة جالسة مع بعضها يتحدثون في أمور كثيرة.

نزل شهاب إلى العاصمة بحثاً عن عمل بعد أن
رسب في السنة الأولى مرتين.. كلن في البداية معجبا
بشعبة علم الاجتماع التي وجه لها.. ولكن سرعان ما بدا
يفقد حماسه ومحفته للمواد التي يدرسها.. ولم يستطع أن
ينجح في عامه الأول وأعاد السنة الأولى مرتين وحرّم من
المنحة الجامعية فأصبح يشعر بأنه لم يعد قادرا على
مواصلة الدراسة وعليه أن يبحث عن عمل..

قادته رحلة البحث إلى إحدى الصحف اليومية..
توقف أمام بنائها ثم دخل وطلب من عون الاستقبال أن
يقابل المدير أو مساعده. قرأ في المعلقة البلورية للصحيفة

أن الجريدة في حاجة إلى مصحح يتولى إصلاح الأخطاء المطبعية.

بعد محادثة قصيرة واختبار وافق مدير الصحيفة على انتدابه وطلب منه مباشرة العمل بداية من ذلك اليوم. يحضر شهاب إلى مقر الصحيفة بداية من الساعة الرابعة ويتواصل إلى ما بعد العاشرة ليلاً.

بدأت على شهاب علامات السعادة منذ اليوم الأول لعمله.. فقد كان حريصاً على قراءة البروفة بشكل دقيق ويشير إلى كل خطأ يعثر عليه.

مع مرور الأيام، بدأ شهاب يتعرف على الصحفيين الذين كانوا يعملون في الجريدة.. وكان بعضهم يأتي إلى قاعة الإصلاح والمراجعة حيث كان يجلس شهاب كل مساء منهمكا في عمله.. لم يكن شهاب هو المصحح الوحيد

في الجريدة فقد كان معه مصححان آخران، لطفي وسي
عبدالقادر الرجل الذي كانت تبدو عليه علامات الوقار فهو
يرتدي جبة أنيقة ويضع على رأسه شاشية حمراء ويلف
رقبته بكشكول من الحرير البني اللون..

وسي عبد القادر يحترمه الجميع في الجريدة لانه
على قدر كبير من الثقافة.. لا يكتف بتصحیح الأخطاء
المطبعة بل يصلح أيضا الأخطاء اللغوية وأخطاء
التركيب. عرف شهاب أن سي عبد القادر هو من رجال
التعليم وهو يدرس في الصباح ويأتي في المساء إلى
الجريدة.. يقول عن نفسه أنه من جيل التأسيس للمدرسة
الحديثة في تونس رغم أنه خريج الزيتونة.. استلطف سي
عبد القادر شهاب لما رأي فيه من دماثة أخلاق وحماس.

فكان يسمح لنفسه بممازحته.. وسي عبد القادر
رجل يحب النكتة لأنه جريدي أصيل.. وكان يقول أنه من

جيل البشير خريف ومصطفى خريف ومحي الدين خريف.. وكان يحدثهم هن ذكرياته مع البشير خريف وروايته الدقلة في عراجينها ورواية بلارة.

البشير خريف الذي كنت لا تراه إلا وهو ماسك بغليون وبيده قفقه الشهيرة التي حوت نماذج وعناوين مختلفة مع الكتب.. يأتي كل صباح إلى مقهى المغرب حيث يتحول مجلسه إلى مجلس أدبي وفكري.

ويرسل سي عبدالقادر تتهيدة كبيرة ويقول :

- يا حسرة على قهوة المغرب.. كان مجمع الأدباء وامتقنين وعلية القوم. تحول مكانها الآن إلى متجر لبيع الملابس الجاهزة.

يحب شهاب الاستماع إلى هذه الحكايات من سي عبد القادر الذي كان كثيرا ما كان يمزج كلامه بالنكتة

الجريدة التي يتقنها. ولكن سي عبد القادر يحب شيئاً آخر. هو يحب الرئيس الحبيب بورقيبة ويعتبره قائد الأمة ومحرر تونس من الاستعمار ومؤسس الدولة الحديثة. وذات مرة دخل في خصام مع أحد الصحافيين الذي أراد أن يشاكسه عندما قال له أن الرئيس بورقيبة حرم البلاد من أن تعيش التعددية الحزبية والسياسية منذ بداية الستينات.. ولو سمح وقتها بالتعددية الحزبية لجنب البلاد الكثير من الويلات والهزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لم يقبل سي عبد القادر هذا الكلام من الصحفي وقال له أنت من المتحاملين.. كيف يقول هذا الكلام وبورقيبة سمح للحزب الشيوعي بالتواجد منذ الستينات إلى جانب الحزب الذي يرأسه.

أدرك شهاب أن سي عبد القادر لا يمكن إقناعه بسهولة بأن بورقيبة مثلما له إنجازات أيضاً له أخطاء

وحتى يحافظ على ما يكنه له من محبة وود لم يشأ أن يفتح معه مثل هذه المواضيع.

عدل سي عبد القادر من وضع شاشيته على رأسه باستمالتها قليلا إلى اليسار وامتدت يده إلى كأس الشاي الأخضر الذي أمامه وسأل شهاب عن أسماء لأشخاص يعرفهم من مدينته.

قال له فلان الذي أسألك عنه كان زميلا لي في جامع الزيتونة.. وفلان الآخر درس معي في المدرسة في إحدى ولايات الشمال لما تم تعييننا لأول مرة. يا حسرة.

سي عبد القادر مضى على اشتغاله في التدريس أكثر من ثلاثين سنة وقد درس بعدة مناطق من الجمهورية كانت البداية تعيينه في إحدى مدارس سليانة ثم قابس ونابل وأخيرا استقر به المقام في إحدى مدارس الكبارية

بالعاصمة.. هو لا يحسن اللغة الفرنسية ولكنه متطلع في
اللغة العربية ويستشهد في كلامه بالآيات القرآنية والشعر.
عندما ينتهي العمل في الجريدة بعد العاشرة ليلاً..
يرافق شهاب سي عبدالقادر نحو إحدى المطاعم الشعبية
في باب سويقة وهناك يتناولان وجبة خفيفة من الطعام..

الفصل الرابع عشر

كادت ابني تسقط مغشيا عليها.. لما علمت بوفاة
والدة صديقها الطالب جمال.. وأن جمال رجع إلى مسقط
رأسه بعد ما وجد مكانا في قطار منتصف الليل العائد إلى
الجنوب والذي يمر عبر قريتهم ويتوقف في محطة هناك..
تمنت ابني أن تكون مع جمال في لحظة حزنه على
فراق والدته.. لقد أصبح الآن جمال وحيدا بعد أن فقد والده
منذ سنوات والتحقت به أمس والدته.

أحست لأول مرة بحب جارف نحو جمال.. ربما لم
تتوفر من قبل الفرصة لاختبار مدى صدق عاطفتها
نحوه.. كانت علاقتها به في السابق مجرد علاقة بين
زميلين يدرسان في نفس الكلية.. جمعت بينهما عدة قواسم

مشاركة فأصبحتا قريبين جدا من بعضهما ولكن أبدا لم تكن
تدري أن علاقتها بجمال ليست مجرد علاقة زميلين في
الجامعة..

تمنت لو كانت معه.. تقاسمه لحظة حزنه.. وتقف
إلى جانبه في هذا المصاب الجلل..

ما أقسى أن يفقد الإنسان والدته.. وهو في أشد
الحاجة لوقوفها إلى جانبه ووجودها معه..

ودون أن تشعر انخرطت لبنى في نوبة جديدة من
البكاء والعيول.. كأن التي ماتت هي أمها وليست أم جمال
صديقها.. يومها لم تجد رغبة كبيرة في الدخول إلى قاعة
الدروس.. ليس لديها أي رغبة في الدراسة.. ما يشغلها
الآن في هذه اللحظة هو وضعية جمال.. لا شك أن أبناء
قريتهم قد أحاطوا به في هذه الظروف ولن يتركوه وحيدا..

في هذه الظروف الصعبة.. تمنيت لم تلتحق به الآن لتكون
إلى جانبه.. ولكنها ترددت.. ربما سيجد جمال في التحاقها
به في مسقط رأسه إخراجاً أمام أهله.

تمنى جمال لو كان القطار يسير بسرعة أكبر.. فقد
غادر منذ منتصف الليل العاصمة وما زال لم يبلغ بعد
مدينة سوسة والساعة قاربت الخامسة صباحاً.. كان جمال
طوال الطريق يبكي وينتحب.. ويحاول إخفاء بكائه على
بقية المسافرين.. لم يتصور أبداً أن يفقد أمه في لحظة
غيابه.. لقد كانت بالنسبة له الأب والأم بعد وفاة والده..
ضحت بكل شيء من أجله.. وتمردت أياماً وليالي من
أجله.

دفع والده ثمن انتمائه السياسي بخمس سنوات سجن
ومثلها سنوات نفي. ليموت بعد إتمام عدة العقاب بشهر
واحد.. وبقيت أمه تعاني وحدها صروف الدهر ولكن لم

تشعره أبدا في يوم من الأيام بالتعب أو الضجر.. كانت دائما تحته على النجاح في دراسته.. ولا يجب أن تشغله سوى دراسته وأن يكون دوما متفوقا إذا أراد أن يرضي والده في قبره. كما كانت تقول له والدته..

قاربت الشمس من البزوغ والقطار بدا يقترب من محطة الصخيرة.. ما زالت أمامه أكثر من ثلاث ساعات للوصول إلى قريتهم.. هو يريد أن يصل بأقصى سرعة.. كيف ماتت أمه ومتى ماتت ومن كان إلى جانبها عندما ماتت ومتى مرضت أصلا ولماذا لم يعلموه.. أسئلة كانت تملأ رأسه ولا يجد لها جوابا.. تمنى لو كان إلى جانب أمه في ساعاتها الأخيرة.. تمنى لو ملأ صدره بأنفاسها عندما يحنو عليها مقبلا إياها.. تمنى لو أنه لم يذهب إلى الجامعة أصلا ليتفرغ لرعاية والدته.. ولكن هي لم تفتحه بمرضها أبدا وب حاجتها ليكون إلى جانبها.

كان يلطم وجهه.. لماذا لم ينتبه.. لماذا لم تخبره
صليحة ابنة عمه بمرض والدته.. صليحة التي كانت
تنتظر عودته من الجامعة في كل عطلة لتكثر من تردها
على بيتهم بحجة مساعدة والدته على قضاء حاجياتها.
ولكن هي كانت تريد أن تكون قريبة من جمال الذي تحبه.
صليحة التي يزداد حبها لوالدته كلما عاد هو من الجامعة..
وعندما تحين لحظة عودته إلى تونس بعد انقضاء العطلة.
كانت تطمئنه بأنها ستكون إلى جانبها في كل وقت.. هي
تعتبرها بمثابة أمها.. كانت تقول لجمال وهو يحزم حقائبه
باتجاه محطة القطار عائدا إلى العاصمة.. لا تحمل هم
خالتي "منى" هي أمي مثلما هي أمك. ويضغط جمال على
يد صليحة قائلا : هنيئي.. كوني بالنسبة لها ابنة وساعديها
ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

لم يشعر جمال والقطار يواصل سيره عابرا البراري
والمدن كالثعبان وبدا يقترب شيئا فشيئا من قريتهم.. لم
يشعر بالرغبة في صفع صليحة لأنها لم تعلمه بمرض
والدته مثلما شعر بها الآن.. صليحة التي كانت تستعمل
كل الحيل لتكون إلى جانب والدته وتقضي أكثر ما يمكن
من الوقت في بيتهم كلما عاد هو من العاصمة.. لماذا لم
تعمله وإلا لكان إلى جانب والدته.. وسمع منها آخر
كلماتها ودعائها في لحظاتها الأخيرة..

ارتمت لبنى على أول مقعد في المقهى المجاور
للكلية والذي اعتادت أن تجلس فيه مع جمال.. وسحبت
سيجارة من علبة السجائر بحقيبتها.. أشعلتها.. بقداحتها
الذهبية ثم وضعتها بين شفيتها.. وتمنت لو كانت لديها
القدرة لتمتص دخان السجارة في نفس واحد لتطفئ ما
يعتريها في هذه اللحظات من شعور بالحزن وألم الفراق..

الفصل الخامس عشر

بعد أيام قليلة من التحاقه بالمدرسة العليا للفلاحة.
بدا عصام يندمج في الأجواء الجامعية والطلابية رغم ما
كان يبدو عليه من خجل وتردد في بعض المناسبات..
تعرف على زميلته لوقا القادمة من السنيغال للدراسة
بتونس.. لا يعرف عصام ما الذي جذبته إلى لوقا الفتاة
السوداء البشرة والتي كانت تأتي إلى المدرسة العليا للفلاحة
فتلفت نظر الجميع بظفائر شعرها الأسود والذي كان يزيدها
جمالا كلما ابتسمت.. لم تكن لوقا تحسن اللغة العربية جيدا
ولكنها كانت تحاول أن تتكلم باللغة العربية. فقد جاءت إلى
تونس منذ بداية الصائفة وبدأت تتدرب على الكلام باللغة
العربية حتى يسهل عليها التواصل مع زملائها الطلبة ومع

المحيط العام الذي تعيش فيه.. أصبح عصام يشعر بميل نحو زميلته لوقا وكثيرا ما شاهدهما بقية الطلبة معا إما في المقهى أو في الفضاء المدرسة أو في المكتبة يراجعان معا.. كتبت لوقا لوالدتها في السينغال في إحدى رسائلها أنها تعرفت على زميلها التونسي الطالب عصام وهو يساعدها في المراجعة وفي سرعة الاندماج في الأجواء التونسية.. وهي لم تشعر من ناحيته بأي جفاء.. بل أنها تشعر بأنه قريب منها جدا وقريبة منه.. تحرص لوقا على تسجيل يومياتها في تونس في كراس جميل.. وتحاول اطلاع والدتها على ما يستجد في حياتها.. ولكن عصام لم يكن ير في اقترابه وقربه من لوقا الفتاة السمراء أكثر من علاقة زمالة عادية بين زميل وزميله.. هجر عصام بعد التحاقه بالمدرسة العليا للفلاحة هواية كتابة الأدب وخصوصا كتابة القصص فهو موهوب ونشرت له إحدى

الصحف المشهورة بعض قصصه التي يرسلها بغاية النشر.. منذ أن لاحقته أعين الأمن بعد كتابة قصته الثور الذي بلغ عتيا والتي كاد يدخل بسببها السجن ويطرد نهائيا من الدراسة أدرك أن كتابة الأدب تسبب أتعابا لصاحبها. فقرر الانقطاع عن كتابة القصص والأشعار ووجد في نفسه ميلا نحو موهبة الرسم الكاريكاتوري.. كان كثيرا ما يرسم الشخصيات التي يحبها أو يكرهها.. بواسطة رسوم كاريكاتورية باللون الأسود ويبالغ في تضخيم عيوب هذه الشخصيات وعندما ينتهي من رسم شخصية من الشخصيات تنتابه نوبة من الضحك لا يعرف سرها.. في أوقات فراغه يتسلى عصام برسم من يريد.. قال في قرارة نفسه - الرسم أسلم.. لا يجلب المشاكل مثل الأدب حاول أن يعطي كل جهده للدراسة.. ولكن كثيرا ما كان يعاوده الحنين إلى كتابة القصص.. لا يعبأ بكلام بعض زملائه

الذين أطلعهم على موهبته في كتابة القصص.. - ما الذي يجمع بين الهندسة الفلاحية وكتابة الأدب وكان عصام يرد بقوله - وماذا يجمع بين الأدب والطب.. أليس يوسف ادريس الكاتب المصري الشهير هو طبيب في الأصل.. ألا يمكن للمهندس الفلاحي أن يكون كاتباً؟؟ بالغ الطلبة في احتجاجاتهم وأصبحوا يعقدون الاجتماعات في كل وقت.. وكان عصام لا يتخلف عن هذه الاجتماعات وبلغ أمر الطلبة إلى حاكم البلاد.. الذي أنن بردهم - جمع حاكم البلاد وزرائه وأطلعوه على ما يجري في الجامعة من أحداث، استشاط حاكم البلاد غضباً.. ويومها رفض أن يتناول طعام الغداء.. كيف يمكن لهؤلاء الشرنمة أن يهددوا أمن البلاد ويحولون الجامعة إلى فضاءات لقطاراتهم والتفت إلى وزير التعليم - كيف تسمح بهذا التجاوز.. أيها الوزير.. ألم يكن من الأجدر ردع هؤلاء الطلبة الأوباش

وأضاف في لهجة حادة.. هذه الدولة بنيتها بعراقي وتعبي
وسنوات سجنني ونفيلي وكفاحي.. كيف يمكن لهؤلاء الطلبة
أن يهددوا أمن البلاد.. بلع وزير التعلم لسانه.. لم يجد ما
يقوله لحاكم البلاد الذي كان الشرر يتطاير من عينيه. قال
وزير الداخلية الذي كان جالسا قبالة الحاكم - سنقوم بردع
هؤلاء المارقين سيدي الرئيس.. سننسيهم اليوم الذي ولدتهم
فيه أمهاتهم.. وقاطعه وزير الدفاع - فعلا.. نحن تساهلنا
كثيرا مع هؤلاء الطلبة.. إنهم شرذمة ظالة. حدج الرئيس
وزير التعليم بنظرة كلها ازدراء وكأنه يريد أن يقول له ..
في عهدك عرفت الجامعة كل هذا التسيب.. وبلهجة تقترب
من الوعيد خاطب وزراءه - لا يمكن لهذا الوضع أن
يستمر.. الجامعة للدراسة.. ومن أراد أم يمارس السياسة
فليخرج منها.. الجامعة للدراسة.. هل فهتم.. أوما كل
الوزراء برؤوسهم وقال أشجعهم - نعم سيدي الرئيس..

الجامعة للدراسة.. ولا يمكن لهؤلاء الطلبة أن يستضعفوا الدولة.. الدولة لم تكن في يوم من الأيام ضعيفة.. سنأتيك بأخبارهم سيدي الرئيس. كان عصام الطالب المشاكس يتلهى برسم بعض الشخصيات.. وكانت زميلته لوقا تتابعه في إعجاب.. لقد تعطلت الدروس في الجامعة بسبب اضطرابات الطلبة المتواصلة.. قالت لوقا بلهجة فرنسية مخاطبة زميلها عصام - أنت رسام ماهر.. تملك موهبة ممتازة.. جاءت الأخبار إلى الطلبة بأن الحكومة اتخذت كل الإجراءات لردع كل من يحاول تعطيل الدروس أو تحويل الفضاءات الجامعية إلى منابر سياسية وأن هناك قوائم بأسماء طلبة سيتم إيقافهم والتحقيق معهم..

الفصل السادس عشر

ارتعشت السجارة بين أصابع جمال.. وهو يغادر منزلهم باتجاه محطة القطار بعد مرور أسبوع على وفاة والدته.. سحب السجارة من فمه ورمى بها أرضاً وداسها بحذائه وعادوته نوبة البكاء.. كانت ابنة عمه صليحة تراقبه عن بعد، بعد أن اختفت في إحدى زوايا البيت وكانت تبكي وتنتحب.. لم تستطع أن تحجب دموعها أو تخفي حزنها وهي ترى جمال ابن عمها في تلك الحالة من الحزن الشديد على فراق والدته عمتي منى كما كانت تتأديها.. كان على جمال أن يعود إلى العاصمة ويلتحق بالكلية لمتابعة دراسته.. تمنى صليحة أن تكون في وضع يسمح لها بمرافقة ابن عمها جمال لتخفف عنه أعباء الحزن الشديد

الذي يشعر به.. ولكنها كانت تدرك أنها لا تستطيع وأن والدها لا يسمح لها بذلك حتى ولو كان جمال هو ابن أخيه الذي يعتبره واحدا من أبنائه. تمنى صليحة أن يودعها جمال ولو بكلمة واحدة.. فهي تحبه وتتمناه فارسها.. ولكن جمال لم يكن في وضعية تسمح له بأن يقول كلاما حلوا يسعد قلب صليحة.. التحقت به قبل أن يبتعد - جمال.. هذا قدح الحليب الذي كانت عمتي منى تملأه بالحليب وتعطيه لك لتشرب منه قبل أن تغادر البيت، التقت جمال إلى ابنة عمه صليحة.. وهم أن يحضنها.. ولكنه تردد وامتدت يده إلى قدح الحليب ليشرب منه كما كان يفعل ذلك في كل مرة يغادر فيها البيت وتلح عليه أمه في شرب الحليب - اسمع يا ولدي الحليب كله بركة. ثم تأخذه في حضنها بعد أن يدفن هو رأسه على صدرها وتشرع في قراءة آيات من القرآن كانت توصيه وهو يبتعد عنها بعد أن

ترمي وراءه كمية من الماء.. اسمع يا جمال يا ابني.. لا
تنسى أن تقرأ في كل مرة تشعر فيها بالضيق سورة "ألم
نشرح لك صدرك". فيجيبها جمال مبتسما - سأفعل يا
أمي.. لا تقلقي.. اسمعي يا صليحة.. لا تنسى أن تأتي
إلى البيت كل يوم.. لا تتركيه مغلقا.. لا أريد أن يبقى هذا
البيت مغلقا.. سأعود قريبا.. وأسرع جمال.. فقد أزفت
ساعة وصول إلى القطار إلى المحطة وعليه أن يلحق
المحطة قبل أن يمر القطار. مرت أيام صعبة على لبنى
في غياب جمال.. ودت لو التحقت به إلى قريتهم لتشاركه
حزنه على رحيل والدته التي كثيرا ما كان يحدثها عنها،
حتى أنها أحببتها دون أن تراها ولو مرة واحدة في حياتها
من خلال وصف جمال لوالدته منى - اسمعي يا لبنى..
والدتي منى أجمل النساء.. الوشم الظاهر على جبينها
يزيدها جمالا.. قمحية اللون.. طويلة القامة.. عيناها

خضروان.. تزداد وسامة كلما نرف العرق من جبينها.. هي
كالغزالة.. عندما ترتدي ملحفتها السوداء وتحت الملحفة
قميصها الوري ومريول فضيلة ويحيط بخصرها حزامها
المزركش الألوان.. ثم يلتفت إلى لبني ويقول لها - هل
رأيت امرأة أجمل من هذه فتضحك لبني وتقول - إلا أمي
فيقول جمال - لا مستحيل.. منى هي أجمل النساء. جمال
معجب بأمه.. فهي التي رعتة صغيرا وكبر في رعايتها..
يذكر أن أحد الجيران تقدم لها بعد وفاة والده وهي ما تزال
صغيرة طالبا يدها بعد أن ماتت زوجته. فقالت له -
حياتي الآن لإبني.. لا رجل يمكن أن يدخل حياتي بعد
المرحوم.. لا عطر بعد عروس. تضحك لبني وتقول
مستقرة جمال - هل قالت له هذا المثل كما تقوله أنت
الآن. هي لا تعرفه ولكنها كانت تستبطنه ثم يتجه بالسؤال
إلى لبني - وأنت هل تعرفين قصة المثل.. لا عطر بعد

عروسي - لا لا. طبعاً ويروي جمال قصة المثل للبنى..
لقد مات زوج إحدى النساء وكانت معجبة به إلى حد
العشق.. وعندما مات حزنت لوفاته حزناً شديداً.. وكانت
تزوره في قبره تنتحب على قبره كل يوم.. حتى فقدت كل
مظاهر الجمال وأهملت العناية بجسمها وأصبحت تخرج
منها رائحة منفرة. فما كان من إحدى جاراتها بعد أن رأتها
في تلك الحال إلا أن نصحتها بالاستحمام ووضع العطر
الذي يناسبها. فقالت لها - من أين يا جارة.. تتصحينني
بالعطر.. لمن أتعطر.. وأضافت - لا عطر بعد
عروسي.. فذهب قولها مثلاً. يا لفصاحتك يا جمال..
ويستغرقان في نوبة من الضحك..

الفصل السابع عشر

توطدت علاقة سامح بزميلته إيمان.. أصبحا لا يفترقان إلا في ساعة متأخرة من المساء عندما تعود إيمان إلى بيت عائلتها ويعود سامح إلى المبيت الجامعي برأس الطابية.. يراجعان معا ويتفحصان معا.. ويذهبان إلى قاعة السينما معا..

كثيرا ما حدثت إيمان زميلها سامح عن حبها للسينما.. فهي تذهب على الأقل مرة في الأسبوع لمشاهدة أحدث ما تعرضه قاعات السينما من أفلام عربية وغربية وهي تحب كثيرا الأفلام التي تشارك في بطولتها فاتن حمامة وشادية.. أما سامح فهو مغرم بمشاهدة الأفلام الأجنبية.. هو يرى أن الأفلام العربية تدور في حلقة مفرغة

لا تخرج عن نطاق الحب والخيانة الزوجية.. قليلة هي الأفلام التي تعالج قضايا سياسية أو تقترب من هموم الناس الحقيقية.. وهو يفضل قراءة الكتب عن مشاهدة الأفلام والأشرطة السينمائية.. ويحب كثيرا روايات نجيب محفوظ وخاصة ثلاثية السكرية وبين القصرين وقصر الشوق ورواياته الأخرى.. أما إيمان فإنها تحب روايات توفيق الحكيم وترى أن توفيق الحكيم أفضل من نجيب محفوظ وتتباهى أمام سامح بأنها قرأت أغلب روايات توفيق الحكيم ومسرحياته مثل شهرزاد ويا طالع الشجرة وحمار الحكيم وعصا الحكيم ويوميات نائب في الأرياف.

أما سامح فإنه كثيرا ما يدخل معها في نقاش - لا. لا أنا أرى أن نجيب محفوظ أفضل من توفيق الحكيم.. توفيق الحكيم يبدو لي كاتباً برجوازيًا فهو لم يتخل عن صفته كقاص حتى وهو يكتب كتاباته معقدة.. هو ابن

المدرسة الغربية متأثر إلى حد كبير بجون بول سارتر..
كتاباتة يغلب عليها الطابع الوجودي.. أما نجيب محفوظ
فإنه ابن البيئة المصرية.. عندما تقرأ الثلاثية يدخلك من
حيث لا تدري إلى أجواء الحارة المصرية وينقل مشاغل
الناس البسطاء.. هكذا يجب أن يكون الأديب أو الكاتب
لسان حال البيئة التي يعيش فيها.

وتصر إيمان على رأيها - أنت تظلم توفيق
الحكيم.. أنا أرى أن توفيق الحكيم بلغ القمة في حمار
الحكيم وعصا الحكيم ويوميات نائب في الأرياف.. إنك
تحك على توفيق الحكيم دون أن تقرأ له. ويشعر سامح
بالضيق ويقول لإيمان - أنت متعصبة له.. لو قرأت
لنجيب محفوظ لغيرت رأيك.

الساعة الآن الرابعة مساء.. وشارع الحبيب بورقيبة
يعج بالرائحين والقادمين من المارة.. وعلى جانبي الطريق

انتصبت المقاهي والدكاكين والمحلات التجارية والمكتبات وقاعات السينما.. وعلى طرف الشارع من اليمين تنتصب الكنيسة ومن حين لآخر يصدر عنها صوت الناقوس.. ويدخلها عدد من المصلين من المسيحيين يمارسون طقوسهم بكل حرية. أما في الطرف الآخر فقد انتصب المسرح البلدي ببنائته الشامخة.. هنا في هذا الفضاء كانت لرجال المسرح صولات وجولات.. كبار المسرحيين والمخرجين المسرحيين من الشرق والغرب عرضوا مسرحياتهم هنا.. هنا عرض علي بن عياد أفضل المسرحيات.. مراد الثالث وغيرها من روائع المسرح العالمي.. وقف سامح وإيمان أمام بناية المسرح البلدي.. وعلى مدرجاته الأمامية جلس عدد من الشباب. قال سامح مخاطبا إيمان - تعالي نجلس مثلهم. اتخذ سامح وإيمان لهما مكانا في أعلى المدارج من جهة اليمين.. بدت لهما

بناية نزل الهناء الشامخة بطوابقها تثير في نفسيهما الرغبة
في شرب قهوة في الفضاء الخارجي أسفل البناية.

قالت إيمان : - ألا تريد أن تشرب قهوة.

رد سامح : - أنت تدفعين.. كل ما أملكه من ثروة
اشتريت به كتباً من مكتبة الكتاب.

ضحكت إيمان وأخذت سامح من يده تساعده على
الوقوف وقطعا الشارع باتجاه المقهى. خير سامح أن يجلس
وإيمان في الفضاء الخارجي هو لا يحتمل رائحة التدخين
المنبعثة من الفضاء الداخلي حيث كان عدد من الجالسين
يدخنون بشراهة ويحتسون الجعة. طلبت إيمان عصير
برتقال وطلب سامح قهوة مضغوطة وانتحيا ناحية بعيدة
عن أعين الرقباء.. قال لها تعالي نفعل مثلهم.. تعالي
نجلس هناك.. ما إن جلسا في الناحية التي اختارها حتى

جاءتهما امرأة في العقد الرابع من عمرها على ما يبدو تتبع عقودا قدت من الياسمين وعرضت عليهما بضاعتها. قالت مخاطبة سامح - ألا تستحق منك أن تطوق جيدها بعقد من الياسمين. امتدت يد سامح إلى جيبه وأخرج ما بقي به من دنانير ومد لها خمسة دنانير ثمن العقد قال - نعم هي تستحق. وأحنت إيمان رأسها ليطوق سامح حبيبها جيدها بأحلى عقد من الياسمين وقد علا ضحكهما.

الفصل الثامن عشر

أصبحت الأجواء في الجامعة مشحونة.. إيقافات متتالية لعدد من الطلبة الذين اعتبرهم النظام عناصر مناوئة تحاول زعزعة أمن البلاد وتعطيل الدروس وجر بقية الطلبة إلى العنف والخروج في مظاهرات ضد النظام.. مجموعة الطلبة الإسلاميين تحاول أن تقرض وجودها مستعملة شتى الوسائل وكذلك المجموعة على اليسار.. ويحاول النظام قدر جهده أن تكون المجموعات الطلابية المالية له.. قادرة على مواجهة المجموعات الطلابية الأخرى..

دعا حاكم البلاد وزرائه المعنيين إلى اجتماع عاجل لاتخاذ القرارات المناسبة. كانت علامات الغضب بادية

على ملامح وجهه عندما التفت إلى وزير الداخلية موجهاً له كلامه - هذا الوضع لا يجب أن يستمر.. ما الذي يحدث.. كمشة من الأوباش تحاول زعزعة أركان النظام. يحاول وزير الداخلية أن يجيب فيقاطعه الحاكم - لم أدعوك للتكلم أو تبدي رأيك.. أنا الذي أتكلم.. ماذا تنتظرون.. هذه الشرذمة الظالة من الطلبة تحاول أن تدخل الفوضى في البلاد وأنتم تتفرجون. يغالب وزير الداخلية ما لحقه من شعور بالإهانة ويجيب الحاكم - سيدي الرئيس.. أعدك لن يستمر هذا الوضع. يجيب الرئيس في حق - أنا لا أريد الزج بهم في السجون.. لا أريد أن يقال عني أنني أدخل الطلبة إلى السجون لمجرد التعبير عن آرائهم.. لا بد أن تجدوا طرقاً أخرى لردع هؤلاء الأوغاد. هناك طرق عديدة غير الزج بهم في السجون.

تمر السنوات بطيئة في السجن منذ أن حكم على عبد الباقي بخمس سنوات سجن.. لأنه قام بتدليس وتزوير في وثائق حالة مدنية.. قيل وقتها أن الحكم على عبد الباقي كان قاسيا وكان يمكن أن تكون سنوات السجن أقل ولكن الحاكم أراد أن يلقنه درسا قاسيا حتى لا يعود إلى صنيعه.. مرة أخرى.. فقد تزوج عبد الباقي على غير الصيغ القانونية من امرأة ثانية واحتفظ بها إلى جانب زوجته الأولى وكان في كل مرة يسجل أبناء الزوجة الثانية على أساس أنهم من زوجته الأولى ولم يكن أحد يعلم بهذا السر غير زوجته الثانية التي ما إن قرر التخلي عنها حتى قررت الانتقام منه وفضح أمره لدى القضاء بعد أن يئست في محاولة استرضائه وعدم تسريحها.. ولكن عبد الباقي صمم على إخراجها من حياته ومن بيته مهما كلفه الأمر.

عبد الباقي هذا رجل شجاع وصنديد رغم ما يقترفه
أحيانا من أخطاء في حق نفسه وهو رجل اشتهر بالكرم
والجود. مرت سنوات السجن على عبد الباقي ثقيلة بطيئة
وكل يوم من أيام السجن كان بالنسبة له في قيمة عام من
السجن وأقصى ما يحرم منه الإنسان هو حريته. يتذكر
منتصر الطالب بكلية العلوم قصة سجن والده فيعتصر قلبه
ألما.. ليت والده لم يقدم على فعلته حتى لا يضيع أحلى
سنوات عمره في السجن.. منذ أن التحق منتصر بكلية
العلوم أراد أن يسخر كل جهده للنجاح في دراسته.. لم
ينخرط كبقية زملائه الطلبة في التشكيلات الطلابية
السياسية.. كانت تدرس معه في الفصل زميلته أحلام
القادمة من إحدى ولايات الشمال.. والدها فلاح يملك
أراضي كثيرة وعقارات في العاصمة.

كان منتصر في أيامه الأولى بالجامعة يبدو منكفئاً على نفسه، خجول إلى حد أن وجهه يحمر كلما كلمته إحدى الطالبات.. هو قادم من قرية من قرى الوسط التونسي ووالده ليس فلاحاً ثرياً أو يملك عقارات مثل والد زميلته أحلام. كان في البداية يتجنب الحديث معها.. هو لم يكن يعرف السبب ولكن أحلام كانت تلاحقه.. ربما استلطفته دون بقية زملائها الطلبة الذين كانوا يتمنون ودها ورضاءها عنهم.. هي لا تعرف لماذا استلطفت زميلها منتصر دون بقية الطلبة ولكنها كانت تشعر نحوه بميل عميق.. ربما لأنه كان وسيماً، أسود الشعر، أشقر الوجه، طويل القامة.

طلب حاكم البلاد من وزرائه إيجاد حلول. قال أحد

وزرائه :

- سيدي هؤلاء الطلبة.. لا يصلح معهم اللين..
نحن والشعب كله يعرف.. طيبة قلبك ولكن هؤلاء لا ينفع
معهم أن تكون لين القلب.. هم يستضعفون الدولة التي لم
تكن في يوم من الأيام تحت قيادتكم الرشيدة ضعيفة.

قال وزير آخر :

- سيدي.. أنا عندي اقتراح أعرضه على جنابكم..
هي عقوبة تأديبية لا أكثر ولا أقل.. قلا هي بالسجن الذي
لا ترضونه للطلبة ولا هي بالاستراحة حتى يشعر هؤلاء
الطلبة المارقون بذنبهم.

أدرك وزير الداخلية أم الأمر سيفلت من يده.. فقال
مخاطبا الرئيس :

- في رأيي هؤلاء الطلبة.. لا يمكن أن نتماذى
معهم في اتباع سياسة اللين.. وقرص الأذن ثم نتركهم..

ليعودوا إلى ما كانوا عليه.. لا يمكن أن نسمح بتواصل
الحماقات.. عندما يشعر هؤلاء الطلبة أن الدولة قوية
سيرتدعون وسيكفون على ما يقومون به من أعمال تهور
وتخريب.

كان الحاكم يستمع بانتباه إلى آراء وزرائه.. الذين
كان كل واحد منهم أن يقدم الحل الذي يراه مناسباً وفي
الخارج كانت الأوضاع تزداد تأزماً وحدة.. فقد بالغ الطلبة
في تمردهم..

وضاق صدر الحاكم ذرعاً وقرر اتخاذ ما يجب
اتخاذهُ لردع الطلبة المارقين.

الفصل التاسع عشر

أنهى شهاب عمله في الجريدة بعد أن أكمل إصلاح كل البروفات التي قدمت له وقرر الخروج لتناول قهوة قبل أن يعود إلى البيت الذي اكتراه مع أحد أبناء منطقته الذي قدم إلى العاصمة بحثاً عن عمل.. استهوته جلسة في الفضاء الخارجي لمقهى نزل الهناء الدولي.. كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف ليلاً.. وبدأ الزوار يغادرون المقهى وحتى الحركة في شارع الحبيب بورقيبة بدأت تهفت قليلاً.. ولم تعد كما كانت في بداية المساء..

الجلوس في مقهى الانترنتايسونال له نكهة خاصة فهو مقهى مطل على الشارع الرئيسي ونسمات الليل تهب خفيفة تنعش الأجسام.. لم يكن شهاب مقتنعاً بعمله في

الجريدة فالأجر الذي يتقاضاه في نهاية كل شهر لا يسمح له بالجلوس كثيرا في المقاهي أو ارتياد المطاعم الضخمة.. فهو فقط يكفيه لتسديد معلوم الكراء وما يتبقى هو مصروف يومي.. طلب شهاب قهوة وراح يفكر.. هل سأمضي عمري كله مصححا في جريدة.. لا بد أن أجد عملا.. العمل في الجريدة ليس عملا قارا ويمكن للجريدة أن تستغني عني في أي وقت.

ذات مرة حدث صديقه وزميله في الجريدة سي عبد القادر عن رغبته في أن يكون معلما مثله فهو يعشق هذه المهنة.. ووعدده سي عبد القادر بالمساعدة.. قال له أنه يعرف مسؤولا في الوزارة سيكلمه عنه.. لا شك أنه سيساعده.. ولكن مضت مدة طويلة منذ أن وعده سي عبد القادر ولم يجد أي جديد. جلست قبالتها فتاة شقراء وأخرجت من حقيبتها سيجارة من النوع الفاخر وطلبت قهوة من

النادل الذي ما إن جلست حتى جاءها مسرعا طالبا منها ما تريد.. لا شك أنها زبونة دائمة اعتادت الجلوس في هذا المقهى.. فقد تبادلت مع النادل بعض الكلام الذي فهم منه شهاب أنها زبونة اعتادت الجلوس في هذا المقهى لتناول قهوتها..

لم تهتم به هذه الفتاة رغم أنه حاول أن يركز نظره عليها عدة مرات.. فقد انشغلت بفتح جهاز صغير كانت تحمله معها أخرجته من حقيبتها وراحت تعالجه.. حانت منها التفاتة إلى شهاب وقد بدا المقهى يخلو من زواره فوجدته ينظر إليها في استيحاء وخفية.. ابتسمت له ثم أردفت بلغة فرنسية : بون سوار.

تلعث شهاب في البداية.. أذهلته المفاجأة.. هل كانت تعنيه هو عندما قالت بون سوار.. التفت يمينا

وشمالا.. لم يجد أحدا غيره يجلس قريبا.. عرف أن التحية كانت موجهة إليه.. قال في استيحاء : بونسوار .

هي ربما لم تسمعه فقد عادت إلى الانشغال بالجهاز الصغير الذي كان بين يديها.. ثم أخرجت سيجارة ثانية من حقيبتها وأشعلتها.. وضع النادل أمامها القهوة.. ابتسمت وقالت له :

- تأخرت.. كدت أغادر.. هل أتيت بها من المنزه.

- المنزه.. يا لهذه الكلمة السحرية.. قال شهاب في قرارة نفسه.. لا بد أنها إحدى بنات هذه الضاحية الراقية.. حاول أن يسرق النظر إليها مرة أخرى.. بدا له وجهها وقد انسدل شعرها الذهبي يغطي بعض جنبات الوجه كقمر مشرق في ليلة ظلماء..

اه بنات المنزه جميلات أكيد من بنات العائلات
الراقية.. أعادت الفتاة النظر إليه.. أدركت إنه منشغل بها..
أخذت قهوتها بيدها وحقيبتها وعلبة سجائرها وقامت.. كان
يعتقد أنها ستجلس في مكان آخر ولكنها جاءت إليه ثم
خاطبته :

- هل تسمح أجلس معك.

باغتته المفاجأة.. ضاعت الكلمات من فمه..

- نعم.. نعم تفضلي.

ضحكت ثم قالت :

- رأيتك منشغلا بي.. تسترق النظر فأردت أن

أريحك وآتي إليك.. أنا إسمي هند.

- هند ؟

- نعم..

دون أن يشعر استحضر بيت عمرو ابن كلثوم :

- كلما قلنا متى الموعد.. ضحكت هند وقالت بعد

غد.

لم يدرك أنه كان يردد البيت الشعري أمامها بصوت

عال وهي لا تزال واقفة.

- انت شاعر أذن

- لا لست أنا صاحب البيت.. هذا عمرو ابن

كلثوم.

- قالت ضاحكة :

- يسكن في المنازه أم في قرطاج.

- لا بل يسكن في الجبل الأحمر.

ضحكا معا. قالت له :

- يبدو أنك مجامل كبير.. وأنت ما إسمك.
- أنا إسمي شهاب.. من الجنوب أعمل مصححا صحفيا، أدرس في كلية علم الاجتماع.
- ياه.. أنت مثقف كبير.. أنا يا دوب الباكالوريا..
- سامح الله المسعدي بسده الصعب.. فشلت في الامتحان فقررت ألا أعيدها.. وأنا أشتغل سكرتيرة الآن في شركة..
- الحمد لله.
- ما أسهل الحصول على عمل عندكم يا أبناء العاصمة.
- ضحكت.. وقالت .. أنا طرقت باب إحدى الشركات بغاية الحصول على عمل موسمي في الصيف. تم قبولي وبسرعة طلب مساعد المدير العام أن أكون سكرتيته الخاصة.. وجدت الأجر مغريا فبقيت..
- ألم أقل لك أن الشغل عندكم يا أبناء العواصم أسهل مما يتصوره العقل.. لو طرقت أنا باب هذه الشركة لأطردوني.

- ماذا تشرب.. أريد أن تشرب شيئاً على حسابي..
أنت لطيف جداً.

اعتذر شهاب وقال لها :

- أنا شربت.

أصرت هند أن يشرب مرة أخرى أي شيء آخر
على حسابها. بدا عدد من الرواد في المبنى الداخلي
يغادرون المكان.. فقد بدأت الساعة تشير إلى تمام الحادية
عشر والنصف ليلاً.. أدركت هند أن الوقت تأخر ولم يعد
بإمكانها البقاء أكثر في لمقهى.

استأذنت من شهاب في المغادرة.. قال لها :

أنا أيضاً سأغادر.

دفعت هند الحساب وابتلعهما الشارع الطويل فقد
قارب الليل من الانتصاف.

الفصل العشرون

على غير عادته بدا شارع الحبيب بورقيبة شبه خال من المارة.. هناك شعور بالانقباض يسيطر على الجميع.. حتى المقاهي على جانبي شارع الحبيب بورقيبة بدت شبه فارغة.. ما الذي يحدث في تونس هذا الصباح..

بالأمس كان الشارع مسرحا لعدة ملاحظات من رجال الأمن لعناصر قيل أنها حاولت التظاهر.. ولكن رجال الأمن اعترضوا المتظاهرين من كل اتجاه وحاولوا صدهم.. ومنعوهم من مواصلة المسيرة.. فتجمع الكثير أمام ساحة المسرح ورفعوا شعارات تطالب بتغيير النظام.. كان أغلب المتجمعين ينتمون إلى فئة المثقفين من رجال مسرح وروائيين وشعراء.. حاول الأمن تفريقهم ولكنهم أصروا على

البقاء.. قالوا أن الشارع ملك للشعب ومن حق هذا الشعب أن يعبر عن رأيه.. كان جمال أحد المتجمعين أمام بناية المسرح البلدي.. هو الذي ما زال الحزن يسيطر على كل مشاعره بعد فقدانه لوالدته.. صعد ثلاث أو أربعة درجات ثم أخذ الكلمة وخاطب الحاضرين..

- نحن لا نخاف.. نحن باقون هنا.. الشارع لنا.. لقد أزفت ساعة الرحيل.. لن ترهبوننا. كان جمال يتكلم بكل حماس.. لم يتفطن إلى وجود عصام في نفس المجموعة.. عصام الطالب بالمدرسة العليا للفلاحة.. تكلم عصام ووصل صوته من بعيد.

- لن نبرح هذا المكان.. بلغوا حاكمكم.. لقد أزفت ساعة الرحيل.

أطلق البوليس قنابل مسيلة للدموع لتفريق
المتجمعين.. الذين لم يصمدوا أمام كثافة الدخان المتصاعد
ورائحة الغاز الخانقة فتفرقوا وحاولوا الاحتماء ببعض
المحلات المجاورة.. لم تلتق لبني بجمال منذ ان عاد من
مسقط رأسه بعد قضاء أيام هناك إثر وفاة والدته.. فقد
انشغلت هي الأخرى بمرض شقيقتها وانقطعت أيام عن
الدراسة.. ولكنها كانت تتمنى أن يعود جمال بسرعة فقد
اشتاقت إليه.. هي تعرف أنه ما زال تحت تأثير وطأة
الحزن على فراق والدته ولكنها هي تحبه وتريد أن تظهر له
أنها حزينة لحزنه.. جمال أيضا كان يفكر في لبني وتمنى
أن يلقاها بعد عودته من قريتهم..

استطاع شهاب أن ينجح في مناظرة انتداب
معلمين.. وتم تعيينه معلما بإحدى المدارس بالعاصمة..
هو لا يعرف هل تدخل له سي عبد القادر زميله في

الجريدة أما لا.. أصبحت لقاءاته بصديقه هند تتم كل مساء بعد أن تنتهي هي من عملها وينتهي هو من عمله في المدرسة.. ذات يوم سألت هند شهاب :

- شهاب.. هل تحبني ؟

تلعثم شهاب ولم يستطع أن يجيبها.. هل يقول لها أن والدته أوصته عندما جاء إلى العاصمة لأول مرة بأن يتجنب الاقتراب من النساء قدر ما يستطيع. قالت له وهي تودعه في محطة اللوالات :

- شهاب يا بني إياك والاقتراب من النساء.. نساء العاصمة ليست لهن نفس طباعنا.. قيل أنهن يدخن أمام العموم.. يومها ضحك شهاب من كلام والدته.. اطمئني يا أمي أعرف ماذا تقصدين.. التدخين ليس عيبا ولا يعير المرأة.. وردت والدته في تعجب :

- امرأة تدخن.. هذه نهاية الدنيا؟؟

أعادت هند السؤال على شهاب :

- أين ذهب تفكيرك ؟

أجابها :

- أشعر بحنين الآن إلى والدتي.. اشتقت إليها

والله.. صمت ثم أضاف :

- أتعرفين بماذا أوصتني أول مرة عندما أتيت إلى

العاصمة منذ ثلاث سنوات.

قالت هند متعجبة تريد أن تعرف.

- بماذا أوصتك ؟

- ضحك شهاب وقال أوصتني بعدم الاقتراب من

نساء العاصمة قالت لي وقتها : لقد قيل أن نساء العاصمة

يدخن ويجلسن في المقاهي ويرتدن المطاعم. إياك
والاقتراب منهن.

ضحكت هند وكادت ضحكتها أن تسمع كل
الجالسين بجوارها.

- هذه أم عظيمة.. أنت لم تنفذ وصيتها.

ضحك شهاب وقال لها تعالي نتمشى في الشارع
تعبت من الجلوس.

بدأت الحركة تعود إلى شارع الحبيب بورقيبة..
وبدأت أسراب العصافير تعود إلى الأشجار محدثة زقزقات
جميلة.. لا يمكن للحركة أن تهدأ في هذا الشارع فهي ما
إن تهدأ حتى تعود إلى عنفوانها.. الناس يتمشون وسط
الشارع والبعض جالس على المقاعد الخشبية وأسراب
العصافير ترسل زقزقاتها.

تفقدت صليحة منزل ابن عمها جمال كما أوصاها
قبل عودته إلى تونس.. طالعتها صورة خالتها منى أم
جمال كما لو كانت حية.. كانت هنا تملأ البيت حركة
ونشاطا.. وكانت عندما تفقدها تناديهما لتؤنس وحدتها..
هي تحبها وكانت تتمناها لإبنها جمال.. ولكن تؤجل ذلك
إلى بعد تخرجه من الجامعة.. لم تكن هناك أي حركة في
البيت.. شعرت صليحة بشيء من الخوف وهي داخل غرفة
والدة جمال وفي الأعلى بدت صورة ابن عمها جمال معلقة
في براوز جميل.. كانت والدته تريد أن تراه أمام عينيها في
كل وقت..

أمام تواصل التحركات الطلابية لم يكن بدا من
اتخاذ قرار يؤدب هؤلاء الطلبة.. لم تعد تنفع معهم سياسة
اللين والتخويف.. في المساء داهم الأمن عديد الأجزاء
الجامعية وألقي القبض على أغلب العناصر التي كانت

تشارك في التظاهرات والمسيرات. لقد تقرر إرسال هؤلاء
الطلبة إلى الصحراء لقضاء واجبهم العسكري.. هناك
سيساهمون في إحياء قرية رجيم معتوق تحت إمرة الجيش
الوطني فلا أحد يمكنه أن يمتنع عن أداء هذا الواجب
الوطني.

انتهت الرواية



ترجمة الكاتب محمود الحرشاني



كاتب وصحافي تونسي، من مواليد 02 نوفمبر 1955

اشتغل في الصحافة منذ سنة 1975 وعمل بالإذاعة والتلفزة التونسية ووكالة تونس للإفريقيا والأخبار وصحف ومجلات عربية كمراسل.

أسس مجلة مرآة الوسط في ماي 1981 واستمرت في الصدور إلى سنة 2013 ورقيا وهي تصدر اليوم الكترونيا. كما أسس مجلة الأطفال براعم الوسط.

حاصل على عديد الجوائز الوطنية والعربية ومنها الوسام الوطني للاستحقاق في قطاع الثقافة بأصنافه الرابع والثالث والثاني وجائزة وزارة الثقافة والمنظمة التونسية للتربية والأسرة. يدير حاليا موقع الثقافية التونسية وصاحب قناة أصرار تونسية على اليوتيوب.

أصدر عديد الكتب ومنها : رائحة الأرض، مذكرات صحفي في الوطن العربي، جوائز أدبية في الوطن العربي، فيض الوجدان، قول على قول، رسائل لا تحتل الاختفاء، البحث عن فكرة، دفتر سفر، وكتب أخرى..

حدث في تلك الليلة - المؤلف محمود الحرشاني - الثمن : 12 دينار - تاريخ النشر : ديسمبر 2021

ISBN 978-9938-72-198-0 - الإيداع القانوني : 31 جانفي 2022

